552

الحسن علي الحسني الندوي

المسلمون و فلسطين

552

دار القلم

Marfat.com

552

أبو الحسن علي الحسني الندوي

المسلمون وقضية فلسطين

الناشر

الدار الكويتية

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ٢٠١٤٦ – الكويت

Marfat.com

135488

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ،

أما بعد : فليست النكبات والكوارث العظيمة التي تصاب بها الأمم والبلاد ، مفاجآت أو مجرد مصادفات، في نظر المطلع على سنن الله في خلقه ، ونواميس الفطرة التي خلقها الله ، والمتدبر للقرآن ـ الكتاب المعجز الخالد ـ والمتدبر لتاريخ الامم ، بل هي الحلقة الاخيرة الواضحة ، والنهاية الطبيعية الحتمية لسلسلة طويلة من الحوادث التي لم ينتبه لها في أوانها إلا القليل النادر الذين رزقهم الله الفطنة الدقيقة ، والفراسة الصادقة ، وهم الذين قال عنهم : **« إنّ في ذلك لآياتٍ للمُتوسّمين »** .

وليست هذه النكبات والكوارث إلا نتيجة عوامل كثيرة ـ أكثرها داخلية نفسية ـ كانت تتفاعل ، وتعمل عملها الطبيعي في حياة الأمة والمجتمع منذ زمن طويل ، وكان الذى قد عرف طبيعة هذه العوامل ، وقوة تأثيرها ، يستطيع أن يتكهن بمصير

Marfat.com

هذه الأمة والمجتمع ، تحت ضغط هذه العوامل ، من غير نبوة أو كهانة ، او عبقرية أو ألمعية ، كأنه يقرأ في كتاب أو يطالع في صورة ، أو يحكي قصة ماضية ، كالذي عرف أوان المطر ، ورأى مقدماته وطلائعه ، فتنبأ بنزول المطر ، وقد يحـــدد له وقتاً لا يتخلف إلا في النادر ، ومـــا ذاك إلا بمعرفته لتغيرات الفصول وأحكامها ، وطبيعة الاقليم وعلم الجو ، وبتجـاربه الواسعة ، كما كان يفعل ذلك البدوي المحنك في بادية العرب قديماً ، والعـــالم الفلـكي في المراصد الحديثة في هذا العصر .

فلم تكن كارثة استيلاء الصليبيين على القدس في القرن الخامس الهجري ، ولم تكن حادثة استيلاء التتار والمغول على بغداد ، ثم على العالم الإسلامي في القرن الـسابـع ، من فلتـــات الدهر ، أو عثرات الجدود ، لا أول لها ولا آخر ، كصاعقة تنزل على قوم من غير أن يسبقها نذير ، أو كحوادث الحريق المفـــاجئة التي تحدث في بيت كبير ، أو حيّ من الاحياء ، بل بالعكس كانت هاتان الحادثتان الحلقة الاخيرة التي انتهت إليها سلسلة طويلة من الامراض الخلقية ، والانحرافات الطائشة ، والتصرفات الاثيمة ، والمغالطات المتصلة ، والاوضاع غير الصالحة للبقاء في كل مكان وزمان ، وفوق كل ذلك حيـــاة لا يرضاها الله ورسوله ، ولا يوافق عليها الدين الصحيح والعقل السليم . ومن قرأ كتب التاريخ ، والسير والتراجم ، والشعر والادب ، وما يُلقي الضوء على أخبار ذلك المجتمع الذي وقعت فيه هذه الكارثة ، واتجاهاته وميوله ،

ككتب التاريخ ، التي قيدت فيها أخبار كل سنة ، وحوادثهـــا الكبيرة، وقرأ التاريخ الاجتماعي لبغداد في عصر سقوطها ، وقبل سقوطها ـ عرف أن زحف التتار الوحوش على بغداد ، وتخريبهم لها ، لم يكن خبط عشواء ، إنما هو تقدير العزيز العليم ، وحسبك أن تقرأ ما يقوله أبو الحسن الخزرجي في أهل بغـداد قبل أن يستولي عليهم التتار :

« واهتموا بالاقطـــاعات والمكاسب ، واهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، ، واشتغلوا بتحصيل الاموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » . (١)

وما يقوله قطب الدين الحنفي الهندي المكي يصف أهـــل بغداد في زمن المستعصم :

« ... مرفّهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب، واجتماع احباب واصحاب ، فما كابدوا حرباً،ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً » (٢).

وكذلك من عرف الشرق العربي الإسلامي ـ الذي يسميه الاوربيون « الشرق الاوسط » أو « الشرق الادنى » عن كثب لا عن كتب ، وعاش فيه كأحد أبنائـــه ، وتقلب في عواصمه

---

١ ـ العسجد المسبوك .

٢ ـ الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٨٠ الطبعة الاوربية .

Marfat.com

وبيئاته وطبقاته ، بين سنة ١٩٤٨ م وسنة ١٩٦٧ م ، ورأى تردد الحكومات العربية في سياستها ، وضعف إرادتها ، وخضوعهـــا للدول الاوربية الكبرى ، وارتباطها بإشاراتها ، ورأى أخـلاق الرؤساء والقادة ، ومن بيدهم الحل والعقد ، ورأى إخـلادهم إلى الراحة ، وإيثارهم للذة والمنفعة ، ورأى بصفة خاصة في مصر ــ التي كانت تتزعم العالم العربي ، وتقود الحركة الفكرية والادبية ، والعلمية والدينية ، ــ عبث الادباء والكتـــاب والموجهين بالأسس الدينية ، والقيم الخلقية والاجتماعية، والمقررات التاريخية، وتسخيرهم لطاقة الادب والاقلام ، لتقويض دعائم الحياة الصالحة، والاخلاق الفاضلة ، وبعث فوضى فكرية ، لا معروف فيها ولا منكر ، ولا حق فيها ولا باطل ، إنما هي انتهـازية وأبيقورية ، وإقليمية وفرعونية ، وعامية وفرنجـة ، وترويجهم لأدب يسميه القرآن : « **زخرف القول غرورا** »، وحملتهم المنظمـــة لغرس الشك والإضطراب في العقائد ، والشذوذ في الاخلاق والميول ، والانحراف في الاذواق والطبائع ، والجبن في النفوس والقلوب ، والانفعالية في الإرادات والتصرفات ، والغرام بالتسلية والمتعـة الرخيصة في أدق الساعات وأحلك الايام . ورأى إحجام العلمـاء وقادة الدين عن قول الحق ونقد الباطل، والشهادة بالقسط .ورأى خضوعهم للمثل العليا الزائفة ، التي خضع لها عُبّاد المعـــدات والبطون من وجوب ارتفـاع مستوى المعيشة ، وإرضاء الاهـل والاسرة ، وتحقيق مطالبها ، ولو من غير حل . ورأى افتتان العامة ، والطبقات الـكادحة بالملاهي ، والمعازف ، والاغـاني ،

Marfat.com

وبكل ما تتمتع به الاذن ، والعين ، والخيال ، والتقاء هذه الطبقات كلها – على اختلاف مستوياتها وثقافاتها – على حب الحياة والكراهية للموت ، وبعدها عن كل مغامرة وإقدام ... من رأى ذلك كله ، وتحققه، وعاش فيه، جزم بأن هذه الشعوب لا تستطيع أن تحتمل أقل صدمة تأتيها من الخارج،ولا تستطيع أن تدافع عن دينها وشرفها ، ومقدساتها وكيانها .

وقد فاض ذلك على قلم بعض الكتاب الذين رزقهم الله حظاً من تدبر القرآن ومعرفة سنن الله ونواميسه ، وتجارب الامم . وعلى ألسنة بعض الخطباء الذين أنطقهم الله الذي أنطق كل شيء ، فتنبأوا بالنتيجة المحتومة لهذه الاوضاع ، وأنذروا قومهم بدنو الكارثة ، ولم تكن نبوة ولا كهانة ، ولم تكن عبقرية ولا ألمعية فائقة ، إنما هو استنتاج سليم ، وتوصل من الاسباب إلى المسببات، ومن المباديء والمقدمات ، إلى النتائج والغايات .

وقد كانت نكبة الخامس من حزيران ١٩٦٧ م قمة ما وصل إليه هذا الفساد الذي أشرنا إليه ، فتنبه لها كل أحد ، ورفعت الغشاوة عن كل عين ، وفزع لها العالم العربي ، والعالم الإسلامي فزعاً لم يفزع مثله لحادث منذ زمن طويل، وقام عدد كبير من الكتاب والمؤلفين ، والمعنيين بالقضايا الإسلامية ، وواقع العالم الإسلامي يبحثون عن أسبابها ، والعوامل التي أدت إلى هذه النتيجة المشؤومة ، وسلكوا فيها طرائق قدداً ، ومناهج مختلفة ، وكادت تكوّن هذه البحوث والكتابات مكتبة جديدة يصعب استعراضها ، والإحاطة بها .

Marfat.com

وقد سبق لمؤلف هذا الكتاب أن بحث في هذا الموضوع قبل وقوع هذه المأساة في شكلها النهائي بعدة سنين ، وجرت على قلمه وعلى لسانه بعض الحقائق التي تحققت فيما بعد ، لأن القضية لم تكن غامضة ولا ملتوية، وإنما كانت تحتاج إلى شيء من التذوق بالقرآن، وشيء من معرفة طبائع الاشياء ، والاطلاع على ما يجري في هذه المنطقة التي تقع عليها مسئولية الدفاع عن هذه القضية ، ثم وقعت الواقعة فجعلها موضوع تفكيره وبحثه وكتاباته ، وصدرت عن قلمه ولسانه عدة مقالات ومحاضرات نشرت في وقتها وتداولتها الايدي ، والتزم أن يكون كل ذلك في ضوء القرآن والنواميس الإلهية ، والسنن الازلية التي بينها القرآن ، وشهد بها تاريخ الامم، وأن يكون كل ذلك تصويراً للواقع الذي تعيش فيه هذه الامة من غير مبالغة وصناعة ، ومن غير تفاؤل وتشاؤم . ويضع أصابع قادة الفكر والرأي على الأمراض الحقيقية ، ومواضع الضعف والعلة الاصيلة في الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية، وعلى علاجها الحاسم ، وهي تختلف في الزمان والمكان ، وتنقسم في مقال بالقلم ، وحديث باللسان ، وتربط بينها وحدة جامعة ، وهي محاولة الاهتداء إلى الاسباب الحقيقية ، والإشارة إليها ، والتحذير منها بصراحة ، لا غموض فيها ولا التباس ، ولا مداهنة فيها ولا نفاق .

وقد بدا للمؤلف أن يجمع هذه المقالات والمحاضرات كلها في مجموع واحد ، يسميه **« المسلمون وقضية فلسطين »** ، وينشره للقاريء العربي الكريم ، عسى أن تكون فيه إنارة سبيل ، أو

Marfat.com

إثارة جانب من جوانب التفكير، وحمل على استئناف السفر من جديد « **وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين** » .

ومعذرة إلى القاريء الكريم إذا وجد بعض المعاني واللفتات معادة مكرورة في عدد من المحاضرات ، وقد كانت البيئات التي تلقى فيها هذه المحاضرات تختلف وتتنوع ، فيقتضي المقام والزمان أن تتأثر هذه المعاني ، وأن تعاد هذه اللفتات من جديـــد ، وفي ذلك تقليد لأسلوب القرآن الكريم ، وتطبيق لأساليب الدعـوة والإرشاد ، التي جرى عليها الدعاة والخطباء من الزمن القـديم ، « **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** » .

١٣٨٨/١١/١٨ هـ
١٩٦٩/٢/٦ م
يوم الخميس

ابو الحسن علي الحسني الندوي
دار عرفات
دائرة الشيخ علم الله الحسني
رائى بريلي (الهند)

Marfat.com

التربية والأخلاق التي مهدت للتخاذل في فلسطين

لم يزدد المسلمون إلا ضعفاً ، ولم تزدد أخلاقهم على مر الأيام إلا انحطاطاً وتدهوراً ، ولا أحوالهم وشؤونهم إلا فساداً ، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمة جوفاء لا روح فيها ولا دم ، وكانوا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يؤوى الناس ويهول من بعيد ، أو كدوحة قد تأكلت جذورها ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعـــد ، وأصبحت بلادهم مالا سائبا لا مانع له، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس، وطعمة لكل آكل ،وحق قول النبي ﷺ :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الاكلة إلى قصعتها، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله مـــن صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ؟ قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهـــة الموت » (١) .

واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة حتى أغارت عليهم في القرن

---

(١) رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه .

Marfat.com

الثامن عشر المسيحي الأمم الأوربية النصرانية الجاهلية ، المتحضرة الوحشية ، الكاسية العارية [1] فسلموها مفاتيح ملكهم ،واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي منزلة ، أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم ، وشروا بلادهم للأجنبي بثمن بخس دراهم معدودة ، وتطوعوا في جنود العدو يفتحون بلادهم الأجنبي على حسابهم .

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيراً وأعمق أثراً ، وأبعد مدى من الهجوم الشرقي (المغولي والتتاري) ، فكاد يخمد كل جمرة في قلوبهم لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون ، وبقيت كامنة في الرماد تخبو مرة وتلتهب أخرى .

فتش عقلاؤهم عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين وقلوبهم ، فوجدوا أن أكبر منبع للقوة والحياة هو « **الايمان** » ، وشهدوا مافعل الايمان قديماً ، وما أظهر من معجزات وخوارق ، وما هو خليق بأن يفعل ، فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين ، هما أفتك بهم وأضر بهم من المغول والتتار ، ومن الوباء الفاتك . . الأول : هو الشك وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه ، والثاني : ما نعبر عنه بالذل النفسي ، وهو أن صار

---

(١) المطلع على تاريخ حضارة هذه الأمم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة .

Marfat.com

المسلمون يشعرون بالذل والهوان في داخل أنفسهم وفي أعماق قلوبهم ، ويزدرون بكل مايتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق ، ويستحيون من أنفسهم ، ويؤمنون بفضل الأوربيين في كل شيء ، ويعتقدون فيهم كل خير ، ولا يكادون يعترفون بنقصهم وعيبهم في ناحية من نواحي الحياة ، ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم في ساعة من ساعات الدهر . **وإذا تمكن هذا الذل من نفوس أمة فقد ماتت ، وان كنت تراها تغدو وتروح ، وتأكل وتعيش .**

وابتلي المسلمون في هذه المرة — بتأثير الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية — بعبادة المادة وحب الدنيا ، والجري وراء النفع العاجل ، وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية ، على المباديء والأخلاق ، شأن الأمم الأوربية الجاهلية ، فكانت هذه الاخلاق وهذه النفسية والتربية مانعاً من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ، ومن تحمل المشاق وتجرع المرائر ، ومكابدة الاهوال والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح والعقيدة السامية .

كانت نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين ، متنور الذهن ، ولكنه مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين ، قليل الصبر والجد ، ضعيف الإرادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية وبجاه وعزة وهمية ، ضعيف الثقة بنفسه وأمته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد الى غيره .

(واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم) .

Marfat.com

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الإتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم ، والتكفف لديهم، والالتجاء في مواقع الخطر اليهم . وأطفأوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ، والحميـــة للدين ، وابدلوها بالوطنية العليلة ، والجنسية الناعسة ، وأبدلوا جنونهـــا الذي بعث الحكمة من مرقدها ، وأطلق العقل من إساره، والذي تمكن مما لم يتمكن منه العقل والعلم في آلاف من السنين ، أبدلوا هذا الجنون الحكيم بعقل ناقص عليـل لا يعرف إلا الموانـــع والعراقيل .

وقد ظهر هذا التحول الأعظم في العقيدة والنفسية ، والإفلاس في الروح والايمان في شر مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعـــالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري ، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع أمام الزحف التتاري فضيحة للعالم الاسلامي في القرن السابع . فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية ، وتدافع عن وطن عربي إسلامي مقدس ، عن القبلة الأولى وعن المسجد الثالث الذي تشد اليه الرحال ، وعن جزيرة العرب والأقطار العربية التي أصبحت مهـــددة بالخطر الصهيوني ، فكانت حرب فلسطين دفاعاً عن حياة وشرف ، وعن دين وعقيدة ، وكان العالم العربي بأسره إزاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الأنظار إلى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليرموك ، أو وقعة مثل وقعة حطين ، ولمـــاذا لا

ينتظرونها والامة هي الامة ، والعقيدة هي العقيـــدة مع زيادة فائقة في العدد والعدد ، فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذالا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين ؟

ولكنهم نسوا ما فعلت الايام وما فعلت التربيـة ، وما فعلت الدول والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالامة العربيـــة في هذا العصر !

لقد تقدم العرب إلى معركة اليرموك حقاً ، ولكن بغير الايمان الذي تقدم به أسلافهم إلى هذه المعركة في العصر الأول .

لقد تقدموا إلى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين — لو ظفر العرب فيها ... ولكنهم تقدموا بغير الروح التي تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد .

تقدموا بقلوب خاوية تكره الموت ، وتحب الحياة، وأهواء متشتتة، وكلمة متفرقة ويريدون أن يربحوا النصر ولا يخسروا شيئاً، وأن يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشيء . كل يعتقد أن غيره هو المسؤول عن الحرب وعن الغلبة والهزيمة،ثم هم يقاتلون وحبلهم في يد غيرهم ، إذا أرخى قليلا تقدموا ، وإذا جره تأخروا ، وإذا قال : حاربوا ، حاربوا . وإذا قيل : اصطلحوا . اصطلحوا . وما هكذا يكتسب الظفر ويقهر العدو :

أوردها سعدٌ وسعد مشتمل ماهكذا تورد يا سعدُ الابل

وبقي العالم متطلعاً إلى ماقرأه في تاريـخ الجهاد الإسلامي من

روائع الإيمان وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة، والبسالة والبطولة والاستقبال للموت ، والتمني للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الإطاعة والايثار ، فلم ير من ذلك شيئاً ، إلا لمعات وإشراقات للايمان ، كانت تظهر من بعض المتطوعين في حرب فلسطين والاخوان المجاهدين ، تجندوا وتطوعوا للحرب بدافع الايمان ، والدفاع عن الاسلام، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم إلى ميدان الحرب ، فشرفوا الدين وأرعبوا القلوب ، وأعادوا التاريخ القـــديم، وبرهنوا على أن الايمان لايزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وأن عنده من القوة والنفوذ والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ما ليس عندالدول الكبيرة المنظمة .

لقد ثبت مما ذكرناه في هذا الكتاب ، وماسردناه من الأمثلة والأخبار ، وشهادات التاريـخ ومشاهدات هذا العصر — وما حرب فلسطين منا ببعيد — أن المـد والجزر في تاريـخ الاسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الايمان ، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وأن منبع قوة هذه الأمة في باطنها ، وهو القلب والروح ، فإذا عمر القلب بالايمـــان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وتزكت الروح بتعـاليم الدين والأخلاق الاسلامية ، وجاش الصدر بالحمية الدينية جيشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية، وأعدوا للعدو ما استطاعوا،وأدركوا ما عليه العالم من جور وظلم ومن جهالة وسفاهة وضلال في الدين والدنيا ، وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام ، والعالم قد عاد جاهلياً كما بـــدأ « **ظهر الفساد في البر والبحر بما**

Marfat.com

كسبت أيدي الناس » فأشفقوا عليه، ورأوا كأن العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم ، فسعوا به يطفئون النار التي عمت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذاتهم وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ، وجن جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوة خارقه للعادة لا يغلبها العالم ، ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده ودوله ، يصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا، **« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، أنهم لهم المنصورون ، وأن جنـــدنا لهم الغالبون » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »** [1]

---

(١) مقتبس من رسالة المؤلف « المد والجزر في تاريخ الاسلام » طبع القاهرة ١٩٥١ م

العَوامِل الأسَاسِيَّة لِضيَاع قضيَّة فِلسطين

* سادتي وإخواني :

وفـــدت الى الأقطار العربية العزيزة ، وقضية فلسطين هي شغلها الشاغل ، وحديث النوادي والمحافل ،وانها لجديرة باكثر من هذا . لأنها قضية الكرامة والشرف ، وقضية الايمان والعقيدة ، والفاصلة بين الموت والحياة . وقد ساهمت ـ كفرد من أفراد هذه الأمة العظيمة التي نكبت في فلسطين ـ في التفكير في هذه القضية ، والبحث عن أسباب الفشل العميقة الحقيقية ، ورجعت الى التاريخ فقارنت بين قضية فلسطين اليوم ، وبين المواقف الحاسمة في تاريخ هذه الأمة بالامس التي خرجت منها ظافرة منتصرة ، وتساءلت : ما هي المفارقات بين الماضي والحاضر ، وكم بين الاول والآخر ؟ فخرجت من هذا التفكير والدراسة بنتائج أعرضها عليكم أيها السادة كباحث ورائد ، واعتقد أن جامعة عربية كالجامعة السورية التي تتكفل بأنشاء الجيل الجديـد الذي سيواجه هذه المشكلة وجهاً

---

* القيت هذه المحاضرة في مدرج الجامعة السورية بدمشق في التاسع عشر من شوال ١٣٧٠ — ٥١/٧/٢٣ م في اجتماع كبير حضره كبـــار علماء دمشق ، واساتذة الجامعة ، واعضاء المجلس النيابي ، وبعض السفراء والوزراء السابقين وقادة الفكر في البلد ، وعلق عليها الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله .

Marfat.com

لوجه . ... أعتقد أنها خير مكان للبحث العلمي والتفكير العميق في هذه القضية .

اني أتقدم اليكم أيها السادة بقولي : إن النتائج التي توصلت اليها قـــد تثير العجب في أواسط كثيرة ، ولا تتفق مع ذلك المنهج الفكري وأسلوب البحث الذي تعودناه في هذا الموضوع ، ولكن أمانة التاريخ تدفعني الى أن أقدمها اليكم ، وأدعو الى النظر فيها ومعالجتها في اول فرصة .

أعتقد ، أيها السادة : أن أسباب نكبتنا أعمق وأبعد مدى من الاسباب التي يشير اليها الباحثون في هذا الموضوع ، واطول عمراً من قضية فلسطين نفسها . فقد سبقت تلك الاسباب هذه القضية بكثير ، وبدأت تفعل فعلها في كيان الامة من زمن بعيد ، وقد تم مفعولها في قضية فلسطين ، والذي انتبه لهذه العوامل الهدامة من قبل لم يفاجأ بالنتائج ولم يستغربها .

إني أرى علامة الاستفهام ترتسم على وجوهكم الكريمة فأقول من غير تأجيل مزيد : إن هذه الاسباب تتلخص عندي في ثلاثة وجوه :

(١) ضعف الدافع النفسي والباعث الداخلي الى الاستماتة والتفاني في سبيل العقيدة والمبدأ .

(٢) طغيان العقل على العاطفة ، والحـــذر من المغامرة واقتحام الاخطار .

Marfat.com

(٣) فقـــدان الشخصية المركزية التي تملك القضية عليها مشاعرها وتفكيرها وتصبح همها الشاغل ، وتستولي عليهـــا استيلاءاً كاملاً .

واسمحوا لي الآن بشرح هذه الوجوه بالترتيب :

إن قانون الجاذبية معلوم عنـد الجميـع ، هذا القانون الذي يقتضي ان يصل كل جسم الى مركزه ويهبط الى الاسفل ، ولكننا نرى قوى كثيرة تعارض هذا القانون وتثور عليه وترفع أجساماً كثيرة إلى الاعلى ، ولكن ينبغي لنا ان لا ننسى أن كل ما نرى خلاف ذلك ، هو لعارض يزول بزواله . فاذا تركت الاجسام والاثقال وشأنها ، هبطت الى مركزها وسقطت . كذلك النفوس أيها السادة ، فطرت على حب الحيـــاة والراحة ، ولا تزال تؤثر الحياة ولا تعدل بها شيئاً ، وهي أسرع إليها من الماء الى الحدور حتى يأتي قاسر قوي فيحولهـــا من مجراها الطبيعي ، فتصبح تؤثر شيئاً أعلى من الحياة على الحياة ، وتؤثر في سبيله المتاعب على الراحة ، والصعوبة على السهولة .

إن حب البقاء والخلود غريزة إنسانية لا تنفك عنا ، ولعلها أقوى الغرائز الانسانية وأوضحها . وقد فطن لها عدو الانسان الاقدم ورأى أنها أضعف جانب في طبيعة الانسان ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، وقال لابي البشر : **« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »** . وسرعان ما انقاد لها وانـــدفع اليها . وليست المباني التاريخية الخالدة ، والآثار البـــاقية ، والاهرام

الشامخة إلا رمزاً لغريزة حب البقاء والخلود وتجاوباً لها، كما قال سيدنا هود لأمته : « **أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** » .

إن تاريخ الانسان — أيها السادة — قصة الجري وراء الحياة وأسبابها وحب البقاء والخلود، والبحث عن أسباب السعادة والهناء، والراحة والرخاء. وصراع مستمر وكفاح جار في سبيل الاستئثار بها والحصول عليها ، ولكن تتخللها فترات ، قد تطول وقد تقصر نرى فيها الانسان يندفع الى غايات أخرى يهون عليه الموت في سبيلها، بل يطلبه ويجري وراءه ، كما كان يطلب الحياة ويجري وراءها، ونرى فيها الناس يتهالكون على الموت في سبيل هذه الغايات . كما يتهافت الفراش على النور ، ويتنافسون في أسبابه كما كانوا يتنافسون في الاموال والأولاد .

هذه هي الفترات وجدت فيها شخصيات مثلت للناس حقائق آمن بها الانسان كما آمن بالحياة من قبل واحبها واندفع وراءها ، كما احب الحياة واندفع وراءها ، بل أحبها فوق الحياة واكثر من النفس والروح والاموال والأولاد ، فاستهان بكل ذلك في سبيل هذه الحقائق . ومن المقرر أن الانسان لا يترك شيئاً الا لشيء أحب اليه منه وأعز لديه . فلا يستهين بالحياة ولا يضحي بالمال والولد الا لشيء أعز عليه من الحياة ، وأحب اليه من المـــال والولد .

إن هذه الشخصيات تحدث انقلاباً في اتجاه الطبيعة البشرية ، إنها توجه غريزة حب البقاء والخلود الى عالم أوسع من هذا العالم

135488

الضيق ، والى حياة أجدر بهذا الانسان الطموح من هذه الحياة المقيدة المحدودة ، ولمثل المعاني الروحية والحقائق الغيبية ، فاذا هي أقوى سلطاناً وهيمنةعلى النفوس والارواح من اللذات والشهوات ، وأوضح واثبت من الماديات والمحسوسات . فيندفع آلاف من النفوس البشرية الى هذه الحقائق وهي في طي الغيب ووراء الحس والمشاهدة ، بايمان أقوى من إيمان المادي بالماديات ، وبيقين أشد من اليقين الذي يقوم على التجارب والمشاهدات ، وتكون أحرص على الموت في سبيلها من عُبّاد الحياة على الحياة ، هـــذه هي شخصيات الأنبياء وهذه هي فترات النبوة والايمان في التاريخ الانساني ، وهي لمعات مبعثرة على صفحات التاريخ ، تكتنفها ظلمات كثيفة طويلة .

واطول هذه الفترات أيها السادة ، وأعمقها أمراً هي الفترة التي انبثقت من بعثة سيدنا محمد العربي ﷺ . هي الفترة التاريخية التي حدثت أعظم تحول في الاذواق والرغبات ، واعظم انقلاب في الاتجاهات .

تعرف الناس بغايات أسمى وأعز من الحياة ، فاستهانوا بالحياة في سبيل الوصول إلى هذه الغايات كما يستهـــين الانسان بالخزف والحصى في سبيل الجواهر الغالية .

تعرف الناس فيها بحياة حقيقية خالدة ، حياة لا نهاية لها ، ولا حزن فيها ، ورأوا ان الشهادة قنطرة اليها ؛ فسارعوا الى عبور

Marfat.com

هذه القنطرة ، وأحبوا كل ما يقرب اليها ، وكرهوا كل ما يباعد منها .

تلوا بالشوق الى الجنة والحنين اليها حتى استطاعوا الحيـــاة واستبطأوا الشهادة .

يقول الرسول ﷺ « قوموا الى جنة عرضها السموات الارض» فيرمي (عمير بن الحمام الانصاري) تمرات كان يأكلهن ويقول : « لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة » ويقاتل فيقتل .

ويبايع رجل من الاعراب ويقول للنبي ﷺ : « إتبعتك على ان أرمي ههنا بسهم — ويشير الى حلقه — فأموت فأدخل الجنة . ويلح (عمرو بن الجموح) وهو أعرج شديد العرج ، على أن يشهد الحرب ، فيمنعه بنوه ويريدون أن يكفوه ، ويقول له الرسول ﷺ : « أما أنت فقـــد وضع الله عنك الجهاد » . فيقول : والله إني لارجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ! ويقتل يوم احد شهيداً .

ويسري هذا الشوق الى الأحداث والغلمان الذين عرفوا بحب اللهو والراحة والفرار من الخطر . فهذا (عمير بن أبي وقاص) يتوارى في الصفوف لئلا يراه النبي ﷺ فيرده لصغره ، ويراه أخوه الاكبر سعـــد بن أبي وقاص فيقول : ما لك يا أخي، لاي شيء تتوارى ؟ فيقول : أخاف أن يردني رسول الله ﷺ فاني صغير ،

Marfat.com

وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة ! ويقع ما يخافه عمير ، فيراه الرسول فيرده لصغره ، وهنا يلجأ الولد الى الشفيع القديم الذي لايرد الكرام شفاعته ــ وهو البكاء ــ ويرق له رسول الله ﷺ ــ وهو الرقيق الرفيق ــ فيأذن له، ويعلق له أخوه الاكبر السيف فاذا حمله اكبر من جسمه ، فيعقد فيه عقدة ويقاتل ويقتل شهيداً .

وهذا (رافع بن خديج) وهو دون الخامسة عشرة من سنه يتطاول من شدة الشوق ليظن الناس أنه كبير قد بلغ سن القتال ، ويرده رسول الله ﷺ فيشفع له الوالد الذي عرف من فجر التاريخ الانساني بالحرص على حياة الولد والضن بها . يشفع له ويزفه الى ميدان القتال بيده . ويرى ذلك (سمرة بن جندب) من أتراب رافع فيقول : كيف تردني يا رسول الله وقد أجزت رافعاً ولو صارعته لصرعته ؟. . فيأمر رسول الله ﷺ بالمصارعة فيصرع سمرة رافعاً ، ويسمح لهما بالدخول في صف المجاهدين .

هؤلاء هم الصغار الذين كانوا يتقدمون الى الحرب ويتحيلون للدخول فيها ويتنافسون فيها ، وأنتم أيها السادة المعلمون ويارجال التربية تعلمون كيف تستدرجون الصغار الى المدرسة وهي ليست ساحة القتال خصوصاً في هذا العصر الذي حرمتم فيه التأديب الجسماني والعقاب المؤلم، فما بال ساحة الحرب! والولد العربي كان يعرف أن القتال جد لا هزل ، ولعب بالسيوف والرماح لا بالكرات والأعواد ؟ ! لقد درستم التاريخ الانساني دراسة واسعة فهل عرفتم في دور من أدواره أمثال هؤلاء الغلمان ، وامثال اولئك

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشيوخ والشباب ، وهل وجدتم في عصر من عصوره هذا التنافس في القتال وهذه الاستهانة بالحياة ، وهذه الجسارة على الموت ؟؟

هـــذه هي القوة التي انتقلت الى العرب من تعاليم الرسالة ، فقهروا بها الامم ودوخوا بها العالم، وفتحوا نصف المعمورةفى نصف قرن ، واخضعوا بها أمماً لم تكن لتخضع للقوة الحربية .

فقدأخضعوابها الرومان والفرس وهم يفوقونهم ألف مرة في العدد والعدد ، وأخضعوا بها البربر في الغرب ، والـترك والأفغان في الشرق ، والزط والتكاكرة في السنـــد ، وهي أمم لم تعرف الخضوع من زمن بعيـد ، ولم تدن لفـاتح من قرون ، ذلك لأن العرب كانوا يقاتلون وهمهم الشهادة ، وأما أعداؤهم فهمهم الحياة ، وشتان بين من يطلب الموت وبين من يطلب الحياة ، وبـــين من يسعى إلى الموت بقدميه وبين من يدفعه براحتيه ، وبـــين من يقاتل ليموت ويكرم بالشهادة ، وبـين من يدافـع ليعيش وينعم بالهناء والسعادة !

لذلك كان العرب منتصرين في كل معركة ، لأن من لا يبالي بالموت ينتصر دائماً على من يعبد الحياة ويقدسها ويقيد نفسه بها .

لقد كان مصدر هذه القوة هو الإيمان أيها السادة ، الذي رفع النفوس من حضيض الشهوات والحرص على الحيـاة والعض عليهـا بالنواجذ والحذر من الموت ، إلى أوج طلب الشهادة ، والاستهانة بالحياة . لقد كان هذا الإيمان قـد قهر في الغرب تلك الطبيعـــة

البشرية التي دائماً تحرص على الحياة وتعاف الموت وتنجـــذب إلى الراحة والسهولة .

إنحط العرب مع الزمان في هذه القوة المعنوية التي امتـــازوا بهـا عن سائر الأمم ، ودب إليهم داء الامم من قبلهم : الحرص على الحياة ، والإخلاد إلى الراحـة ، والإسترسال في الشهوات ، وجنت عليهم المدنية العجميـة فرزأتهم في فروسيتهم التي اشتهروا بها في الجاهلية والاسلام ، وتركوا حياة البساطة والجـــلادة التي كانت من كبار أنصارهم على الامم المريضـــة المسلولة في القرن السادس المسيحي ، إلى حياة التنعم والبذخ والرقـــة ، وهجمت عليهم في العهد الاخير الحضارة الغربية وفلسفة الحياة الماديـــة ، فاكتسبوا منها تقديساً للحياة ، وتقديراً زائداً للمـادة ، وضعفت بتأثيرها الدوافع النفسية إلى المخاطرة بالحياة ، وإيثار الآجلة على العاجلة ، وما خلف هذا الايمـــان شيء يسمو بنفوسهم ويربط وحداتهم ، فأصبحوا لا إيمان يشعل قلوبهم ، ولا مبدأ جامع يجمع شملهم ، ولا غاية سامية تقهر شهواتهم وحزازاتهم .

أما الامم المادية فان كانت قد أفلست في الايمان ، ولكنهـا تعوضت منه مباديء أخرى ، ومطامح وغايات ملكت عليهـــا مشاعرها وتفكيرها ، وقهرت شهواتها ، وتغلبت على نزعاتهـــا الفردية ، ووحدت أفرادها وجمعت شتاتها ، فأصبحت هذه الامم تستميت في سبيل هذه المباديء والغايات ، وتقاتل تحت رايتهـــا ، وتنسى لها أحقادها وخلافاتها الداخلية ، وترتفع لاجلهـــا عن

Marfat.com

سفاسف الامور ، والانانيات الحقـــيرة ، والاغراض الخسيسة، وتضحي في سبيلها بنفوسها ونفائسهـــا، وتسترخص في ذلك كل عزيز وغال ، وأصبحت هذه الغايات والمطامح — على علاتهـــا — إيمانـــاً .

وعقيدة هذه الامم اكسبتها روحاً وقوة معنويـة جديـدة ، وهذا الايمان وإن كان لا يقاوم الايمان العميق الذي يقوم على تعاليم النبوءة ، ويتركز على فكرة الآخرة ، ويحل في قرارة النفس ، فانه لا محالة ينتصر بقوته وجدته على صورة الايمان المجردة عن الحياة والروح ، وان هذه الحياة — وإن كانت جاهليـة غير مؤسسة على الايمان والتقوى — تنتصر بنظامها وتجردها على الحياة التي لا غايـة لها ولا رسالة ... حيـاة الاغراض والشهوات ، حياة المنـافسات والمنازعات ، حياة المطامع الفردية والطموح الشخصي ، حياة الضغائن والاحقاد ، حياة العشائر والافراد .

ليس النصر أيها السادة بالتفوق في الاسلحة والعتاد ، والبراعة في الاساليب الحربية ، وطرق الدعاية . إن النصر بالتفوق في الايمان بالمباديء والغايات ، وتغلغلها في نفوس المحاربين ، والتضحيـة في سبيلها وفي قوة الدوافع النفسية والبواعث الداخليـــة إلى الحرب والموت في سبيل المبدأ والعقيدة ، وقد ضعفت هذه الدوافع النفسية إلى الجهاد والتضحية ، وذبلت أصولها في قلوبنا ، وانقطع عنهـــا الغذاء والري من زمان ، فالمهم الاهم هو إيجـــاد هـذه الدوافع وتغذيتها — إن وجدت — مهما كلفنـا من ثمن وتعب . إن ضعف

هذه الدوافع النفسية أكبر خطراً في حياة الامة وأعظم خسارة لها، وزوالها كارثة أشد من كارثة الاندلس وفلسطين ، فان وجودها كفيل باسترداد كل ما فقدناه في الماضي والحاضر — إذا وجد التوجيه الصحيح والقيادة القوية — أما إذا فقدنا هذه المحركات النفسية القوية النزيهة التي أوجدها الرسول ﷺ بجهاده الطويل وتعاليمه النبوية ، وتربيته الحكيمة ، وشخصيته الفذة، فقدفقدنا رأس المال، وضيعنا مفتاح الحياة والقوة ، وأصبحنا لا نأمن على الموجود فضلاً عن أن نطمع في المفقود .

ولا سبيل إلى إيجاد هذه الدوافع في ساحة القتال ، أو في ساعة القتال ، لأن القتال أوان الحصاد لا الزرع ، فمن لم يزرع لم يحصد ، وقد أهملناها وأهملنا أرض القلوب التي تنبت فيها من مدة طويلة ، وكان كل اشتغالنا بالعقول والاجسام والمظاهر والكماليات، واسمحوا لي أن أقول بصراحة : إن نظام التعليم عندنا لا يخلو من التبعة والمسؤولية أيضاً ، فانه ما زال يعتني بالمواد والمعلومات أكثر مما يعتني بالمحركات والغايات ، وقد تبين أن تكدس المعلومات وتوفر الوسائل والآلات من غير المحركات الصحيحة والغايات الرشيدة يودي بالمجتمع والحضارة نهائياً إلى الانتحار ، وتلك نقطة الضعف في الحضارة الاوربية وداؤها العضال الذي سوف يودي بحياتها ، وأخشى أن تكون نقطة الضعف وسبب الفشل في حياتنا كذلك ، وما فلسطين إلا نذيراً لخطر شديد إن لم يتدارك .

Marfat.com

وأتحدث اليكم الآن أيها السادة عن النقطة الثانية وهي :

جناية العقل على العاطفة :

لا يستطيع أحد أن يقلل من قيمة العقل وأن ينكر فضله ، وأن يعارض الروية والاناة في قضايا الافراد ، فضلا عن الامم ، ولكن مع كل احترامي للعقل واعترافي بما له من فضل أتجاسر وأقول : لا بد لكل أمة من مغامرات ومخاطرات في بعض الاحيان ، وأن لا تعتمد على العقل وحده ، فان العقل ـ ومعذرتي إلى العقلاء ـ عرف من قديم الزمان بالتثبيط والتخويف والتأجيل . فكم ثبط أقواماً عن المعالي ، وكم ذهل فعل المكبرة في تضخيم الاخطار ، وكم أعجل الفتح والظفر ، وكم ضيع الفرص ، وفوت المغانم ؟ .

إن القلب له أن يستشير العقل ويستعين به ، ولكن يحسن في بعض الاحيان أن يستبد بالامر ويتملك الزمام . فلا خير في قلب لا يثور أبداً ولا يستبد ، وقديماً قال الشاعر :

إنما العاجز من لا يستبد

إذا نظرنا في تاريخ العالم رأينا أن أكثر الفتوح والوقائع العظيمة التي لا تزال موضع العجب ، يرجع الفضل فيها إلى العاطفة وروح المغامرة . وأن جلال هذا التاريخ الذي يملأ قلوبنا إيماناً وحماسة وبهاءة من هذه المغامرات ، لو تجرد تاريخنا عنها لكان بكتاب رياضي أشبه منه بكتاب تاريخ .

Marfat.com

إن العاطفة التي تستمد قوتها من الايمان تبتدىء حيث ينتهي العقل ، وتفعل ما يعجز عنه العقل . وإن العقل يتهمهـــا بالجنون والجهل والتهور ، ولكنها خدمت العقل مراراً وأحسنت إلى العلم والحضارة أحياناً كثيرة ، فكم أغاثت العقل وهو ملهوف ، وكم حررته وهو أسير ، وكم انتصرت له وهو مظـــلوم، وكم أقامت دولة العـلم ، وكم حمت الحضـارة وأنقذتهـا من براثن الوحوش والهمج !.

إن صاحب الايمان القوي يمضي ويغامر وينفذ إرادته،ويقوم العقل القاصر معوقاً مرهباً منذراً بسوء العاقبة ، فاذا نجح المؤمن في مغامرته وعاد منها ظافراً منتصراً ، عاد العقل فبرر فعله وأقام الف دليل على صحته !

إنكم لا تنسون العهد الاسلامي الاول ... إنتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الاعلى ، وقام أبو بكر الصديق بالخلافة ، وعظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق بالمدينـة ، وارتـد من ارتـد من أحياء العرب حول المدينة ، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق ، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينـة ، وأصبـــح المسلمون كما يقول (**عروة بن الزبير**) : كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم (ﷺ) وقلتهم وكثرة عدوهم . وأراد أبو بكر رضي الله تعالى عنه ــ والحـال هذه ــ أن يبعث جيش (**أسامة**) إلى الشام تنفيذاً لرغبة رسول الله(ﷺ)ووصيته. هنالك قام العقل معارضاً وقال لا ! ليس من الرأي إقصـاء هـذا

Marfat.com

الجيش المنظم الوحيد وعاصمة الاسلام بارزة للعدو ، عرضة للغزو والنهب . وقام أهل الرأي يقولون : إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين ، وأبى أبو بكر إلا أن يجهز الجيش وقال : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لانفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته .

وكان ما أراد أبو بكر ، وخرج أسامة بجيشه ، والعقل مقطب جبينه ، عاض بنانه . فلما رجع أسامة ظافراً منتصراً وكان لخروجه أحسن الوقع ، غيّر العقل موقفه ، وها هو ذا يقول الآن في التاريخ : « **كان خروج أسامة في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك ، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم ، وقالوا : ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه** »[1] .

إن تاريخ العرب أيها السادة حافل بالمغامرات ، ولعل العرب أكثر الامم مغامرة ، وإن هذه المغامرات لها فضل في بناء هذه الحضارة التي نعم في ظلها العقل والعلم والانسانية .

ومن أعظم هذه المغامرات وأشدها خطراً في تاريخ الحروب سفر (خالد بن الوليد) بجيش كبير من العراق إلى الشام ،

---

١ – البداية والنهاية ، الكامل لابن الاثير .

Marfat.com

والحالة تلك ، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا ارعبوا منهم ، وقالوا : ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه » (١)

إن تاريخ العرب أيها السادة حافل بالمغامرات ، ولعل العرب أكثر الامم مغامرة . وإن هذه المغامرات لها فضل في بناء هذه الحضارة التي نعم في ظلها العقل والعلم والانسانية .

ومن أعظم هذه المغامرات وأشدها خطراً في تاريخ الحروب سفر (خالد بن الوليد) بجيش كبير من العراق الى الشام ،وقطعه لهذه المسافة الشاسعةالمخوفة في خمسة أيام ، قال المؤرخون : (كتب الصديق قبل اليرموك الى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق ، وأن يقفل بمن معه الى الشام . فسار مسرعاً في تسعة آلاف وخمس مائة . ودليله (رافع بن عميرة الطائي) ، وسلك بـــه اراضي لم يسلكها قبله أحـــد ، واجتاب البراري والقفار ، وقطع الأودية وتصعد على الجبال ، وسار في غير مهيع وفي مفاوز معطشة ، فلما فقدوا الماء نحروا النوق فشربوا ما في اجوافها من الماء وسقاه الخيل ووصل في خمسة أيام) .

ولايزال اقتحـــام (سعد بن أبي وقاص) بالجيش الاسلامي في دجلة من أعظم المغامرات في تاريـخ العالم ، قال المؤرخون : (وقف سعد أمام المدائن ، ولم يجـــد شيئاً من السفن ، وتعذر

---

(١) البداية والنهاية، الـكامل لابن الاثير

Marfat.com

عليه تحصيل شيء منها بالكلية ، وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسود ماؤها ورمت بالزبد من كثرة الماء بها . فخطب سعد الناس على الشاطيء وقال : ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم ، فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، ثم اقتحم بفرسه دجلة ، واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض ، حتى ملأوا ما بين الجانبين فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا : « ديوانه ديوانه » يقولون: « مجانين ، مجانين » ثم قالوا : والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً) .[1]

ومن هذه المغامرات العظيمة ما فعله (طارق بن زياد) فاتح الاندلس . قال المؤرخون : لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على ما فعله وقالوا له : لقد قطعت بنا الجبال ، فكيف نرجع الى بلادنا ؟ إن عملك لا يقره العقل ولا يتفق مع الحكمة ، قالوا : فضحك طارق ووضع يده على السيف وقال :إنما يحافظ على السفن ووسائل النقل والسلامة من يفكر في الرجوع ، أما أنا فقد عزمت على البقاء في هذا البلد ، والقتال إلى أن يكون لنا وطناً أو يكون لنا مدفناً ! وكانت مغامراته هذه من أكبر أسباب الظفر ، فقد استطاع بغد

---

(١) البداية ج ٧ ص ٦ .

إحراق السفن أن يقول : « **أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر** ».

فأثار ذلك فيهم روح الجهاد والاستماتة ، وكان النصر ، وعلى أساس هذه المغامرة التي نظر اليها العقل شزراً قامت دولة العقل والعلم ، وقامت تلك المدنيـــة الزاهرة التي كانت مفخرة العرب ومدرسة الغرب .

هذا ومغـــامرة (**عبد الرحمن الداخل**) صقر قريش في الدخول في الأندلس ، ومغامرات الرشيد في الصائفات وسفره الشهير من بغداد إلى (هرقلة) في أشد أيام البرد وتأديبه (نقفور) . وغزوات (المعتصم) في بلاد الروم معروفة في التاريخ ، وما « يوم حليمة بسر » .

هذه هي روح المغامرة التي امتاز بها العرب في عهدهم الأول عن الأمم التي فقدتها ، وقعد بها الإسراف في التفكير والحذر من المخاوف ، فجبنت وذلت وفقدت ملكها وشرفها ، واكتسحتها الفتوح العربية ، وعصفت بها ، فأصبحت أثراً بعد عـــين ، وعاد العرب في العهد الأخير فتسلط عليهم العقل المثبط ، والعلم المعوق ، وأحجموا عن الإقدام والاقتحام ، وبالعكس تعلم غيرهم كيف يخاطرون بحياتهم ، وكيف ينتهزون الفرص ، وتاريخ الحروب الاخيرة في أوروبا ، وتاريخ الإحتلال الاوربي في الشرق في القرن التاسع عشر حافل بالمغامرات والخطوات الجريئة والإقدامات السريعة ، ولا يغير هذه الاوضاع القائمة في الشرق العربي إلا أن

Marfat.com

يربي العرب فيهم – مع الحكمة التي لا بد منها – روح المغامرة الاولى ، وسرعة التنفيذ ، وجرأة الإقدام، ويعملوا بقول شاعرهم الذي يقول :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه

ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

إن قضية فلسطين سهلة هينة ، وانتصار العرب مضمون إذا كانوا أحراراً في تصرفهم ، مالكين لزمامهم ، مدبرين لسياستهم ، مغامرين بأرواحهم وجنودهم . محكمين لسيفهم وسنانهم ، واثقين بنصر الله ، معتمدين على سواعدهم فقط ، متمردين على المـــادة والشهوات ، مصممين على الكفاح والجهاد .

وبقيت النقطة الاخيرة وهي النقطة الحساسة في قضايانا الملتوية ومشاكلنا المتعقدة، وهي :

فقدان الشخصية التي تملك القضية عليها مشاعرها وتفكيرها وتصبح همها الشاغل وتستولي عليها استيلاء كاملا :

لقد تتبعت – أيها السادة – التاريخ ، واستعرضت المواقف الحاسمة والساعات العصيبة في تاريخ هذه الامة وفي التاريـــخ العام، فرأيت على رأس كل قضية منهـــا وفي كل أزمة ومحنة تتهدد كيان هذه الامة وتتحدى شرفها وكرامتها ، رجلا من العصاميين يستولي على قلبه الحزن والاهتمام بهذه الحالة ، فيذهل عن نفسه وأهله ، ويهجر راحته ولذته ، وتتلخص الحياة عنده في

Marfat.com

حل هذه الازمة ، وفض هذه المشكلة فلا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى تنجلي هذه الغمرة ، ويرى نفسه مكلفاً بذلك ، خلق له وأمر به ، ولا يرى لنفسه عذراً في الاعتزال والانصراف إلى النفس والعيال ، واليكم بعض الامثلة من تاريخنا :

لقد علمتم ما أصاب المسلمين هماً إثر وفاة الرسول ﷺ من المحن فقد أصيبوا بما لم تصب به أمة أو جماعة في فجر حياتها. وأشرفت الدعوة الإسلامية على الضياع .. حسبكم قول عروة بن الزبير : « إن المسلمين كانوا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية » ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد قيض لهذه المحنة أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقام قيام الانبياء وليس بنبي ، وركز فكره وهمه على حراسة هذا التراث العظيم ورد الامر إلى نصابه ، وأفرغ روحه في ذلك ، وملكته هذه الفكرة حتى نسي نفسه وكل ما عدا ذلك، وكان رجلا غير الرجل .

لقد عرف بالرفق الزائد ، وآثر جانب اللين دائماً على جانب الشدة والعنف ، فتصلب وخشن في هذه المرة حتى فاق في ذلك عمر بن الخطاب المعروف بالشدة والصلابة ، لأن الموقف يتطلب ذلك .

رأى أبو بكر أنه القائم على هذه الأمانة العظيمة والمسؤول عنها ، ففاضت على شفته تلك الكلمة البليغة المأثورة التي تمثل نفسيته وشعوره خير تمثيل : « **أينقص الدين وأنا حي ؟** » وبهذه الغيرة الملتهبة ،والقلب المتألم ، والنفس الأبية استطاع أبو بكر أن يحفظ

Marfat.com

الدين ويورثه الاجيال القادمة كاملا غير منقوص .

قالت عائشة رضي الله عنها « لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة وأشربت النفاق، والله لقد نزل بأبي مالو نزل بالجبال الراسيات لهاضها . وصار اصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة » ، فو الله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بخطمها وعنانها وفصلها ». لذلك يقول ابو هريرة بحق : « والله الذي لا اله الا هو ، لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله .... قالها ثلاثاً ». وأضرب لكم مثلا ثانياً من أوساط الناس نعرفهم كملوك ورجال دنيا :

تدفقت الجيوش الصليبية من اوربا ، واكتسحت فلسطين بما فيها من أمارات مقدسات ، وكانت كالجراد المنتشر ، ولم يقف في طريقها ملك ولا جيش ، وعجزت الحكومات الاسلامية عن مقاومتها فاستولت على البلاد والعباد ، وهددت هذه الأمة العظيمة وحضارتها ، وكان الخطب جسيما ، ووقف العالم الاسلامي على مفترق الطرق ، فلو جرت الامور إلى مجاريها لكان فريسة الاحتلال والاستعمار في القرن السادس كما كان في القرن التاسع عشر ، وكان الامر أعظم من أن يقوم له ملوك وقواد يكون الدفاع عن القدس واستقلال العالم الاسلامي بعض همومهم أو من هوامش حياتهم . إنما كان ينبغي له رجل يكون الامر كل همه . كان ذلك الرجل السلطان صلاح الدين الايوبي الذي اختاره الله لهذه المهمة وهيأ هو نفسه لها .

فقد حكى عنه صاحبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد

Marfat.com

المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، أنه تاب عن المحرمات وترك الملذات ، ورأى ان الله سبحانه وتعالى خلقه لامر عظيم لا يتفق معـــه اللهو والترف » .

وقام صلاح الدين للدفاع عن فلسطين ورد الغارة الصليبية ، وركز فكره عليه ، وتفرغ له ، واستولت عليه هـــذه الفكرة استيلاءاً تاماً حتى لم تدع لغيرها موضعاً . واليكم ما قاله ابن شداد في سيرته :

« ولقـد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءاً عظيما بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله واولاده ، ووطنـه سكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمته تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . وكان الرجل اذا اراد ان يتقرب اليه يحثه على الجهاد »[1] .

وقد حمل السلطان هم القدس فأخذ منه كل مأخـــذ وحل في قرارة نفسه . قال ابن شداد :

« وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال »[2] .

---

١ ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٦ .

٢ ــ أيضاً ص ٢١٣ .

Marfat.com

ومهما حاولت أيها السادة أن أصف هذا الهم الذي استولى على صلاح الدين وأصور ما كان فيـــه من قلق وإزعاج دائم ، وشدة اهتمام باسترداد البلاد وتحرير القدس، ورد الاوربيين على أعقابهم لا استطيع ان ازيـــد على وصف ابن الشداده بالوالدة الثكلى ، ولا استطيع ان آتي بتعبير أبلغ وأدق من هذا ، يقول رحمه الله في وقعة عكا :

« وهو (السلطان) كالوالدة الثكلى . يجول في فرسه من طلب الى طلب ، ويحث النـاس على الجهاد ، ويطوف بين الاطلاب بنفسه ، وينادي باللاسلام وعيناه تذرفان الدموع ، وكلما نظر الى عكا ، ومـــا حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم. اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة ، وإنما شرب اقـــداح مشروب كان يشير بها الطبيب [1] » .

ويقول في فتح الطريق الى عكة :

« والسلطان يوالي هـــذه الامور بنفسه . ويكافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى . ولقـــد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة الى الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه [2] »

وقال في ذكر الواقعة العادلية :

---

١ — ص ١٥٥ ٢ — ص ٩٠

Marfat.com

« لقد رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه، والناس لم يتم ركوبهم ، وهو كالفاقـــدة ولدها الثاكلة واحدها[1] ».

بهذا الهم الشاغل ، والنفس القلقة ، والقلب المنزعج استطاع صلاح الدين أن يكمل مهمته ، ويكتسب الفتح المبين في معركة حطين . وما كان اجتماع الجيوش عنده والتفاف لامراء . الا صدى لقلبه الخفاق وإيمانه الفياض ، وصدره الجائش ، وروحه الملتهبة ، ولا ترون انتصاراً باهراً في التاريخ ، ومعركة حاسمة إلا ومن ورائها قلب يخفق ، وعرق ينبض ، وليث يثور ، وشجاع يغضب .

إن موضع الضعف في جهادنا اننا لا نجد في الشعوب العربية والحكومات والأفراد من يتبنى هـذه القضية ويتجرد لها تجرد رجل مرض وحيده ، أو قامت عليه قضيـــة ، فاذا تهاون في الدفاع عوقب عقاباً شديداً ، وعلامة ذلك أيهـــا السادة وجود هذه الحزازات والنزعات والمنافسات بين الحكومات والأحزاب والأفراد ، ومعركة فلسطين قائمة ، والعدو بالمرصاد . فهل سمعتم بأسرة يمرض عزيزها أو عميدها ، ويشتد بـــه المرض ويتعرض للموت ورجال هذه الأسرة من أخوة وأعمام وأخوال يتنازعون في العمادة أو السيادة ، ويتشاغلون بذلك عن علاجه وتمريضه ؟ .. إن

---

١ — ص ١١٢ .

Marfat.com

دلت هذه الظاهرة على شيء فانها تدل على عدم تعلق قلوبهم بالمريض أو موت الإنسانية فيهم .

إن مسؤولية فلسطين قد قسمت على شعوب كثيرة ولكن لا يرى شعب أنه أولى بهذه القضية من غيره، مع أنها قضية الجميع وكل بلد عربي في خطر إذا قصر فيها أو تهاون. ثم إن الديمقراطية قسمت المسؤولية على الشعب كله ، ولكن لم يضطلع بها أحد فهي ضائعة بين أفراد الشعب والرؤساء ، لا يرى أحد نفسه مسؤولاً عنها ولا يراها قضيته الشخصية .

ولكن مهما كان فلا داعي إلى اليأس ، ولا مجال للتشاؤم . فالمنبع الذي تنبع منه الدوافع النفسية والبواعث الداخلية — وهو الإيمان — لم ينضب في صدر الأمة ، ويمكن إثارته في كل وقت ، وإن العاطفة التي تبعث على المغامرات لا تزال قوية تنتظر الإنطلاق ، وإن الأمة لم تصب بالعقم ، وقد أنجبت في كل محنة وأزمة أفراداً واجهوا المشكلة وجاءوا بالعجب العجاب ، وعسى أن تكون فلسطين سبب بعث جديد لهذه الأمة ، ويقظة عامة للشرق العربي .

وأنا أختم حديثي هذا أيها السادة بترجمة أبيات لشاعرنا العظيم الدكتور محمد إقبال الذي يقول :

« إذا رأيت النجوم شاحبة متكدرة تخفق ، فاعلم أن

Marfat.com

الفجر قريب . ها هي ذي الشمس قد ذر قرنها من الافق وولى الليل على أدباره . إن عاصفـــة الغرب قد أعادت المسلم إلى الاسلام ، فإنما تكون اللآليء في البحر المتلاطم الهائج ، لقـــد دب دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدم الفـــائر في عروقه الميتة ، وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي ، إن إقبـــال ليس يائساً من تربتـه الحقيرة فإنهـا إذا سقيت أتت بحـاصل كبير » .

Marfat.com

Marfat.com

كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقيّة

أصبح المسلمون في ٢٩ — من صفر ١٣٨٧ من الهجرة (٩ — من حزيران (June) ١٩٦٧م) في كل بقعة من بقاع الارض التي يسكنونها ، لا يرفعون رؤوسهم حياءاً ، ولا يواجهون مواطنيهم وجيرانهم في الشوارع والطرقات والمحافل ، ذلة ومهانة .

قد خنقتهم العبرات ، فهم يغالبونها ، فقد جثمت إسرائيل على مراكز هامة استراتيجية من بلادهم العربية المقدسة ، واستولت على مدن من أرضهم .

وأدهى من كل ذلك وأمر ، أن اليهود قد استولوا على القبلة الاولى ، وثالث الحرمين الشريفين ، والمسجد الاقصى المبارك الذي كان منه الإسراء ، وكان ذلك لاول مرة في ألفي سنة باعتراف رُبّيهم الاكبر، وكان أول يوم لم يصل فيه المسلمون الجمعة في المسجد الاقصى في ثمانية قرون ، بعد ما استعاده صلاح الدين الايوبي من الصليبيين ، وقد بقي في حكمهم تسعين سنة فقط ، لم يهنأ المسلمين عيشاً في هذه المدة ، ولم يطب لهم طعام وشراب ، حتى استردوه إلى الولاية الاسلامية العادلة ، ووصايتها الرحيمة السمحة .

Marfat.com

فكانت هذه الجمعة (٢٩ – صفر ١٣٨٧هـ) – والجمعة مباركة في التقويم الأسلامي – يوماً مشؤوماً لم يعرف المسلمون في أنحاء العالم يوماً أشأم منه منذ قرون . ففي كل عين دمعة ، وفي كل صوت حزن وشجى ، وفي كل بيت حداد ومأتم ، وفي كل مجلس عزاء ورثاء .

هذا ، وقد كانت النفوس الجريحة يساورها أمل في بقاء الصراع والكفاح ، وطول الحرب . فقد تنبأ الخبراء الاجانب ، وأهل البصر بالموقع الجغرافي ، أن الحرب إذا طالت أياماً ، وثبت العرب في المعركة فانها ستنهك قوى اليهود ، وتلجئها إلى أن تضع السلاح .

وكانت الدول العربية القريبة والبعيدة ، تضم قواتها إلى الحكومات التي كانت قد حملت مسؤولية الحرب ، والامل تعلة كل جريح ومريض ، فكان بصيصاً من نور وبريقاً من حياة يجسمه التفاؤل .

وقد انقطع هذا الخيط الضعيف ، وخمد هذا المصباح الضئيل ، فقد قبلت « الجمهورية العربية المتحدة » – زعيمة المعركة وممثلة العرب – وقف إطلاق النار من غير شرط ، ووقعت الهدنة ، ووقع ذلك في سرعة أسطورية ، وبراعة تمثيلية ، ووقف العالم الاسلامي ذاهلا مشدوهاً ، مكتوف اليد ، مسلوب الارادة ، فان

Marfat.com

أصحاب القضية الذين كانوا في المعركة ، والذين حملوا رأيتها، وتولوا كبرها ، قد قبلوا الصلح .

وأصبح المسلمون من غد ، لهم وجوه غير وجوههم بالامس ، وأصبح مواطنوهم الشامتون وزملاؤهم في المكاتب والمصانع يتندرون بهم وبالحكومات العربية ، وباخوانهم في الدين .

فمنهم من يقول : « لقد استسمنا ذا ورم » ومنهم من يقول : « كنا نسمع من سنين جعجعة ولم نر طحناً » ومنهم العامي اللاذع الذي يقول : «تمخض الجبل فولد فأراً» .

والمسلمون يسمعون كل هذا في خجل وحياء ، والعهد بهم أنهم يقرعون الحجة بالحجة ، ويقابلون الريح بالاعصار ، وهم اصحاب بديهة وعارضة ، ولكن يخونهم الذكاء وذلاقة اللسان في هذا الموقف ، ففيه ضعف وعجز ، فينشد الواحد منهم بلسان الشاعر العربي القديم عمرو بن معدي كرب :

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم
نطقت ، ولكن الرماح أجرّت

ولم تكن القضية قضية شخصية ، يسقط فيها قائد ، ويخفق فيها زعيم ، فما أهون هذه القضية ، وما أكثر أمثالها في تاريخ الامم والحكومات ، وفي تاريخ الامة الاسلامية نفسها ، ولكن اقترنت بهذه القضية قضية الحكومات العربية ، وتاوث بهذا الاخفاق الذريع « اسم العرب » الذي كان يملأ القلوب مهابة

Marfat.com

ورعباً في ديار العجم ، والذي ارتبط به تاريخ مجيد مشرق من أروع التواريخ الانسانية .

كان المسلمون في جميع أنحاء العالم يستمدون منه الايمان والحماس ويعتمد عليه المصلحون والمجددون ، والخطباء والمؤلفون، والادباء والمنشئون في كل جيل وعصر ، في إثارة الشعور، وإيقاد جمرات القلوب أكبر اعتماد .

فقد أساءت هذه النهاية المخزية إلى كرامة هذا التاريخ ، وإلى منبع هذا الحماس إساءة كبيرة ، وخلقت مشكلة طريفة لهؤلاء الدعاة والعاملين ، سينتظرون أياماً طويلة لاندمال هذا الجرح ، وزوال هذا الانطباع .

ويحار العقل في تعليل هذه الهزيمة المنكرة وأسبابها ، إذا استعرض الموقع الجغرافي ، وقارن بين ما يملكه العرب من وسائل وقوات ، ورأى التفاوت العظيم المدهش في عدد النفوس ووصول الامداد والنجدة .

فاذا فكر في ذلك ، رجع الفكر خائباً وهو حسير ، ولم ير لذلك مثيلا في تاريخ الامة الاسلامية ، إلا حين هجم التتار ـ وهم الجراد المنتشر والسيل المنهمر ـ على الامبراطورية الاسلامية الكبرى ، وقذف الله الرعب في قلوب المسلمين ، وسلط هؤلاء الوحوش عليهم ، يحصدونهم حصداً كالحقول ، ويسوقونهم سوقاً كالقطعان من الغنم والضأن .

Marfat.com

ولا يمكن تعليل كل ذلك مهما دققنا في النقد والتحليل ، إلا بكلمة جامعة قرآنية معجزة ، هي « الخذلان » وهو قوله تعالى : **« إن ينصركم الله فلا غالب لكم . وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »**[1] .

ولماذا كان هذا الخذلان بعد ما واكبهم النصر والتأييد الالهي ومشى في ركابهم الفتح في رحلتهم الطويلة ، وظهرت المعجزات ، ونزلت جنود السماء ، حتى اعتقد المسلمون — وفي مقدمتهم وعلى رأسهم العرب — أن النصر حليفهم في كل معركة، وقضية فلسطين والمسجد الاقصى ، هي قضية حق وعدل ، وعقل ومنطق ، تستحق كل نصر وتأييد من الارض والسماء ، ودولة إسرائيل قامت على الظلم والجريمة ، والاغتصاب والمكابرة ، واليهود هم أذل خلق الله ، وأكثرهم جبناً وخنوعاً ، وسكان هذه الدولة الوليدة خليط من البشر، شذاذ أفاقون ، أحاطت بهم الدول العربية إحاطة السوار بالمعصم ، والقلادة بالجيد، فهي جزيرة صغيرة في بحر واسع هائج ، وقد قال الله تعالى : « **ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله** »[2] ؟! واليك الحقيقة المؤلمة الثقيلة .

لقد كان العرب الامة المختارة لحمل الرسالة الاسلامية الاولى

---

١ — آل عمران .
٢ — سورة البقرة .

Marfat.com

ونشرها في الآفاق ، وحراستها والحدب عليها ، إلى أن يرث الله الارض ومن عليها ، وقد ربط الله مصيرهم بمصير الاسلام ، وببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، وقرن بينهما قراناً لا يقطعه شيء ، وقد أشعل قلوبهم حماساً في سبيل نشر تعاليم الاسلام ، ودعوة الامم اليها ، وإنقاذها من براثن الجاهلية .

وقد كانت لاخلاقهم ومواهبهم التي خصوا بها من بين الامم ، والتي غذاها وغاها الاسلام ووجهها التوجيه الصحيح فضل كبير في انتصارهم على عدوهم ، الذي كان يفوقهم عشرات المرات ، وفي تحطيمهم للامبراطوريتين العظيمتين — الرومية والايرانية — منها الايمان الراسخ ، والوفاء للاسلام ، والاستماتة في سبيله ، ومنها الايثار ، والانسلاخ عن الانانية الفردية ، ومنها العفة والزهد والتقشف في الحياة ، والصبر وقوة الاحتمال ، ومنها الاعتماد على العمل والكفاح أكثر من الحديث والكلام ، و « الواقعية » بدل الاسترسال في الاوهام والاحلام .

وقد جد في العالم العربي في الدور الاخير حوادث وتطورات قوضت دعائم هذه الحياة ، وأركان هذا الخلق العربي الاسلامي ، وخلقت من هذا العالم الذي عجنت طينته بالاسلام ، وجبه والوفاء له ، والتفاني في سبيله عالماً جديداً ، يختلف عن العالم القديم اختلافاً جذرياً ، وأهم هذه العوامل التي غيرت اتجاهه ثلاثة عوامل بحسب الترتيب التاريخي :

العامل الأول : الحضارة الغربية ، والثروة الهائلة التي تدفقت

Marfat.com

عليه ، وقد أثرت هذه الحضارة وهذه الثروة في أخلاق هذه الامة العسكرية بالطبيعة والتاريخ ، والمتقشفة الزاهدة ، بحكم الوسالة والوراثة ، تأثيراً عميقاً ، فلبها راساً على عقب .

فتفشت فيها روح التنعم والرقـــة ، والترف ، والاخلاد إلى الراحة ، وفقدت روح الفروسية ، والفتوة العربيـة ، والنخوة ، والصبر على المكاره ، واحتمال المصائب ، والثبات في معركة الحياة ، واستهان الناس بأحكام الله وفرائضه ، وتجرأوا على المحـــارم ، ووقعوا في حمى الله .

وأخل العلماء بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر ، وتركوا الحسبة على الناس ، وكلمة حق عند سلطان جائر .

وانتشرت المجلات والصحف الماجنة الخليعـــة تنشر المجون والخلاعة ، وتبذر بذور الفساد والالحاد ، وتحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .

واكتسحت المجتمع موجة من التمتع باللذات ، وانتهـــاب المسرات ، وترفيه النفس وتسليتها على حساب الأخلاق والضمائر ، وعلى حساب الشرائع والديانات .

حتى أصبح بعض من يعرف قانون المجازاة الالهي ، ويعرف تاريخ الأمم السابقة البائدة ، يرفع بصره إلى السماء ، خشيـة أن تنزل عقوبة أو يحل بلاء : [1] ويتلو قوله تعالى :

---

١ - حدثني بعض علماء مصر . وأهل العبرة بذاك عن أنفسهم .

Marfat.com

« أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، أو أمن اهل القرى ان ياتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ،افامنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » [1] .

والعامل الثاني : هو ظهور « القومية العربية » التي كان لها أعمق تأثير في حياة الأمة العربية وعواطفها ومشاعرها بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد قويت هذه العصبية على حساب العصبية الاسلامية ، وأصبحت ديانة وعقيدة يتغنى بها القوميون ، ويتحمسون لها كما يتحمس أهل الديانات والملل لدياناتهم وشرائعهم ، ويرون فيها عوضاً وخلفاً عن الدين الاسلامي الذي أكرمهم الله بالايمان به ، والانتصار له ، والتفاني في سبيله .

يتمثل ذلك بعض التمثيل – في عبارات التقطناها على عجل من كتابات بعض كبار كتاب العرب ، وهي تقدم أسلوب الفكر الحديث المسيطر على دعاة القومية العربية :

« العروبة نفسها دين عندنا نحن « القوميين العرب» المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الاسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا ، مع دعوتها – أي العروبة – إلى اسمى ما في الأديان السماوية من اخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات » [2]

---

١ – سورة الاعراف .

٢ – مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « قضية العرب » لعلي ناصر الدين ، هامش ص ١٣٨ .

« لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ، إن القومية العربية هي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي » .

ورسالة هذه النبوة هي : تجميع القوة ، وتكتيل الجبهـــة ، والانطلاقة بالطاقـة البشرية في كيـان المجتمع العربي نحو كسب الحيـــاة .

وأن كتاب العرب في أعناقهم أمانـــة ، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة ، يزكونها بأقلامهم وينفخون فيهـا من أرواحهم ، ويعمـــلون على أن تتكتل لهـــا أسباب النماء والازدهار »[1] .

« الوحدة العربية يجب ان تنزل من قلوب العرب اينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين »[2] .

« (القضية العربية لن تكون أبداً عنـــد العربي المؤمن الحر العاقل ، الشريف ، الصالح ، الخير ، الابي المـترفع ، إلا قضيـة إيمان ، ايمـــان بالوطن للوطن ، كقضية الايمـــان بالله لله ليس غير »[3] .

وقد نشأ بذلك عقوق بنعمـــة الاسلام ، وكنود وكفران

---

١ – مقال الاستاذ محمود تيمور في مجلة « العالم العربي » عـــدد : ١٧١ بعنوان « النثر والقومية العربية » .

٢ – مجلة العربي العدد الثاني ص ٩ يناير ١٩٥٩ .

٣ – مقدمة الطبعة الثانية ص ١٩ .

بحق محمد عليه الصلاة والسلام ، وفضله في تكوين هذا العالم العربي وإبرازه من العدم إلى الوجود ، وبدرت من أفواه كثير من الشباب المتعلم ، وبعض قادة الفكر وحملة الاقلام كلمات وكنايات ، يرتد بها صاحبها عن الاسلام ، ولا يستحق أن يدفن في مقابر المسلمين .

وصدرت مقالات في صحف ومجلات حكومية يبرز فيها أصحابها كعدو حقود ثائر على الاسلام وجميع الاديان .

وبدأ بعض الكتاب يتحدثون عن « الانسان العربي الجديد » كعملاق مارد على جميع الاديان السماوية ، والاسس العقائدية ، وجميع القيم الخلقية والروحية .

وقد عبر عن هذه الفكرة كاتب جريء يمثل في مقال له في مجلة عسكرية حكومية عدداً كبيراً من الضباط والقادة ، والمفكرين الذين يفكرون هذا التفكير .

يقول صاحب هذا المقال :

« استنجدت أمة العرب بالاله ... فتشت عن القيم القديمة في الاسلام والمسيحية ، استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا ... مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيداً .. بعيداً .. لترى طفلها الوليد ، يقترب منها شيئاً فشيئاً .. وهذا الوليد ليس إلا الانسان العربي ، الاشتراكي الجديد .

الانسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه ...

Marfat.com

التي هي ليست إلا وليدة الاقطاع والرأسمال ولاستعمار . . تلك القيم التي جعلت من الانسان العربي إنساناً متخاذلا متواكلا، إنساناً جبرياً ، مستسلماً للقدر ، إنساناً لا يعرف إلا أن يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ،

أما القيم الجديدة التي ستخلق الانسان العربي الجديد ، فهي قيم نابعة من صلب الانسان المتمرد المعـــذب ، نابعة من قلب الانسان الجائع ، نابعة من الانسان الاشتراكي الثوري الجديد . . الذي لا يؤمن إلا بالانسان وبالانسان وحده .

والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب ، وبنـــاء المجتمع العربي هي خلق الانسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أن الله والأديان ، والاقطاع ، والرأسمال ، ولاستعمار ؛ والمتحكمين ، وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ .

ونحن إذ نشترط في إنساننا الجديـــد رفضه للقيم السابقة علينا أن نضع قيما جديدة محدودة، ليست هناك سوى قيمة واحدة، وهي الايمان المطلق بالانسان القدري الجديد ؛ الانسان الذي لا يعتمد إلا على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء ، لأنه يعلم نهايته الحتمية .. الموت .. وليس غير الموت ، ان يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض ، لذلك هو مضطر إلى أن يقدم كل ما يملك لأمته والانسانية دونما مقابل

Marfat.com

(كزاوية صغيرة في الجنة مثلا) [1] .

وقد خامرت جميع الشعوب العربية نشوة هذه القومية في قليل أو كثير ، وجند لها زعماؤها وقادة الادب والفكر والسياسة جميع مواهبهم وقواهم وجميع وسائل الحكومة ، وكل ذلك يثير سخط الله وغضبه ويقطع عن أصحابها نصرته وتأييده ، وقد زخر القرآن بالوعيد والوبال على من يجحد النعمة ، ويكفر بها :

« وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » [2] ولا نعمة أعظم من نعمة الاسلام ، ولا ثروة أعز من ثروة الايمان ، وقد قال الله تعالى : « واذكر نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » [3] وقال : «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » [4]

والعامل الثالث : هو قيام الحكومات العسكرية الدكتاتورية في كل قطر عربي تقريباً ، وظهور ثورة عسكرية على إثر ثورة عسكرية في هذه البلاد .

---

١ — من مقال للمرشح ابراهيم خلاص في مجلة « جيش الشعب » السورية .
٢ — سورة إبراهيم : ٧ .
٣ — آل عمران ١٠٣
٤ — إبراهيم ٢٨

Marfat.com

وقد أفقـــدت هذه الثورة المشؤومة المتلاحقة المتوالية البلاد أفضل قادتها العسكريين وزعمائها السياسيين ، وأكثرهم حنكة وتجربة ، واكتواءاً بالسياسة ومراساً بالحرب ، فكان عـدد كبير من هؤلاء القادة وأركان الحرب ، والضباط المحنكين ، والزعماء الناضجين ضحية هذه الثورات وهذه الحكومات « الدكتاتورية » ، فيعـــدم كثير منهم ، ويجلى الباقون ، ويغادرون البلاد فراراً بدينهم أو شرفهم أو حياتهم ، وهكذا أصيبت هذه البلاد بفقر الرجال ، وأزمة القادة ، ولم تبق فيها إلا عصابات معدودة محدودة لحزب واحد ولوجهة نظر خاص .

وكانت أكبر مهمة هـذه الحكومات « الدكتاتورية » المقلدة للحكومات الشيوعية المتطرفة ، القضاء على كل عرق ينبض وعين تطرف .

فعقبتها تعقب محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، وفرعون مصر لأطفال بني إسرائيل في زمن قبل التاريخ .

فأصبحت البلاد كلها شبه معسكر لا يوجد إلا زي واحـــد ونظام واحـــد ، أو كسجن كبير لا حرية فيه ولا تنوع ، واصبحت الصحافة والاذاعة آلة ترديـــد الصوت الرسمي وتضخيمه .

وتعقبت الجماعات الدينية بصفة خاصة ، ولقيت القسط الأكبر من الاضطهاد والتعذيب ، والمطاردة والهوان ، حتى عدمت البلاد

Marfat.com

بطولهـــا وعرضها قائلا : يقول : « أصبت » و « أخطأت » و « أحسنت » و « أسأت » .

وأصبح الصوت الوحيد الذي يسمع : « أصبت وأحسنت » ، وعدمت البلاد بطولها وعرضها قائلًا يقول لضابط صغير من الضباط ، ولحاكم عادي من الحكام ، بل لصحافي ومـــذيع ؛ أو كاتب وأديب ، : « اتق الله في أمتك وبلادك » .

وعنيت هذه الحكومات بتجفيف منابع الايمان والحماســة الاسلامية ، أكثر مما عنيت بسد أبواب الفساد والالحاد ومعاقبة الخونة المجرمين ، والدعارين الخشاشين .

وكانت هذه الحكومات التي تزعم الديمقراطية أو الاشتراكية أفظع صور الحكومات الشخصية الجائرة المستبدة في الزمن القديم .

وكان أكثر شغف هذه الحكومات الشخصية الدكتاتورية بالثرثرة الفارغة ، والخطب الرنانة ، والوعود الخلابة ، والتهديدات المجلجلة ، وكان اعتمادها على كثرة الكلام ؛ والدعاية والصحافة اكثـــر وأقوى من اعتمادها على الجنود المسلحـــة ، والآلات الحديثة ، والعتاد الحربي ، وروح الفروسية والبطولة وتجنيـــد الشعوب ، حتى أتخم بها السامعون ومجها وعافها المستمعون ، وسخر منها الأجانب والمنافسون .

وقالت إسرائيل في إحدى أداعاتها القريبة : « استمروا يازعماء

Marfat.com

العرب في خطبكم ، واختلاق القصص والأساطير ، فإذا جد الجد وآن الأوان ، علمتم ماهي إسرائيل . هذه ساعة العمل ، لا ساعة الكلام ، وأن الدعاوى الفارغة لا تقدم ولا تؤخر .

وكان مع الأسف « الجمهورية العربية المتحدة » من أبرع هذه الحكومات في صناعة الكلام ، فقد كانت صحافتها وإذاعتها هي الجنود الحقيقية التي تعتمد عليها ، وتطاول بها ، ويخاف زعماء العرب ورؤساء الحكومات من تعرضها لهم ، ونبشها لأعراضهم وكرامتهم ، وقد كانت معركة كلامية حامية في هذه البلاد تتسابق فيها في المهاجاة ، والتراشق بالكلام ؛ والتنابز بالألقاب ، واختلاق التهم والقصص ، وكان للجمهورية العربية المتحدة الزعامة في هذا الميدان ، كما كانت لها الزعامة في كل ميدان من ميادين الأدب والثقافة ، فقد اجتمع عندها من الكتاب المحترفين ، والصحافيين البارعين ، والمذيعين المتحذلقين الثرثارين ، ما لم يجتمع لأي حكومة شرقية ، فضلا عن حكومة عربية .

زد على ذلك كله اعتماد هذه الحكومات واعتماد زعيمتها على القوة الخارجية ، وعلى الأوضاع والظروف العالمية التي ساعدت « السيد الرئيس » في كسب معركة « القنال » ، وشقت له الطريق إلى ذلك، وقد اتخذها عصاً يتوكأ عليها في كل معركة ! .

في هذه الظروف والأجواء ، وبين هذه الأخلاق والاتجاهات ؛ قامت المعركة الحاسمة بين الحكومات العربية ، وهي مصابة بهذه العلل كلها ، وفي افلاس روحي وضعف خلقي ، وأزمة في الرجال

وفي العاطفة ، والحماسة ، والانسجام ، والوحدة ، لا تزال تسمي هـــذه المعركة - إلا في اللحظة الاخيرة — معركة العروبة و « المعركة المصيرية » .

وقد سمع الناس في الاذاعة رئيس وزارة في حكومة عربية كبيرة يفتتح حديثه ، والحرب قائمة على قدم وساق بقوله : « باسم العروبة الخالدة ، تحية العروبة لكل عربي حر» ، وتجرد عن كلمة تمت إلى الإسلام والدين والله والرسول بصلة ، والبلاد العربيـة لا تغشاها روح الإنابة والخشوع ، والابتهال إلى الله والالتجـاء إلى رحمته ونصرته ، والاطراح على عبوديته ، والتوكل عليه ، والتبرؤ من كل حول وطول إلا عليه ، كما فعل أسلافهم الأولون ، وحث عليه القرآن حيث قال :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . واطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين ، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء النـــاس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » [1] .

وخرجت المواكب والمظاهرات في العواصم العربيـة تهتف : سنسحق الاستعمار الأمريكي ، سنسحق الرجعية العربية ، — التي هي أبغض الأعداء اليها — فلم تثبت هـذه الحكومات في المعركة

---

١ — سورة الانفال ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ .

Marfat.com

ثلاثة أيام ، وطلبت وقف إطلاق النار من غير شرط ولا قيد ، وكان ما كان ، مما ذل به كل مسلم فضلا عن العرب ، في كل بقعة من بقاع الأرض .

أما إسرائيل فلم تضيع ساعة ، بل دقيقة في تقوية مركزها وتجنيد سكانها ، والأخذ بالجد واللباب ، وتهيئة الوسائل والاسباب لكسب المعركة ، وغسل العار الذي لحقها في معركة « القنال » .

فلم نسمع بثورة عسكرية فيها ، ولا بقيام حكومة « دكتاتورية » تصادر جميع الحريات وتشل الحياة ، وتفلج الضمير ، وتحارب كل إصلاح ديني أو خلقي ، وتطارد كل جماعة تنادي بالتمسك بالتعاليم الدينية والاخلاق الفاضلة .

ولم نسمع طوال هذه المدة باعدام القادة الحربيين ، والضباط العسكريين ، والزعماء السياسيين ، وإجلائهم وتشريدهم، كما نسمع ذلك في كل فترة ومدة قصيرة عن العواصم العربية .

وركزت كل جهودها ووسائلها على محاربة العدو المحيط بها، والانتصار عليه ، والدفاع عن « الوطن المقدس » . ذلك كله في هدوء وصمت ، وفي حيطة وحذر ، من غير دعاية وتهريج ، وطعن في المنافسين ، وإهدار كراماتهم .

وينسب أهلها نفوسهم ودولتهم وكفاحهم إلى أنبياء الله وأحبائه ،وتنتسب إلى موسى حين ينتسب كثير من العرب في

Marfat.com

مصر إلى فرعون – وتعتبر كفاحها « جهاداً مقدساً » ، وحرباً دينية .

وقد فوجيء كثير من أصدقائنا حين رأوا العرب يتناسون الاسلام ، ويتغافلون عن العبادة والدعاء ، ويخرجون في غرور وخيلاء ورأوا ذلك في « التلفزيون » ، ورأوا اليهود بالعكس ؛ قد صاموا عن بكرة أبيهم يوم السبت ، وخرجوا يرفعون صحف التوراة بأيديهم ، ويدعون الله ، ويسألونه النصر والتأييد .

هنالك يقع ما يقصم ظهر كثير من المسلمين والمشاركين للعرب في العقيدة والدين ، وفي النسل والطين [1] المحبين لهم بكل قلوبهم وعقولهم ، الذين يعتقدون أن ذل المسلمين بذل العرب ، وعز لمسلمين بعز العرب ، وأنهم كنانة الاسلام ومأرز الايمان، وصعب على كثير منهم فهمه واحتماله ، ولكن الذي عرف سنة الله في خلقه ، ودرس القرآن دراسة عميقة مجردة ، وقرأ إنكاره على اليهود الذين كانوا يعتقدون أن بينهم وبين الله نسباً ورحماً ، ولهم عليه دالة وحقاً ، فهم لا يؤاخذون على التفريط ، ولا يعاقبون على الاعمال والاخلاق ، فقال في صراحة ليست فوقها صراحة ، وفي بلاغة ليست فوقها بلاغة .

« وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ، قل فلم

---

١ – ومنهم كاتب هذه السطور وكثير من أصدقائه وذويه .

Marfat.com

يعذبكم بذنوبكم ، بل انتم بشر ممن خلـــق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير » [1] .

وأعلن أن قانون الجزاء على الاعمال والاخلاق عام محيط ليست فيه مداهنة ولامحاباة، وأنه ليس هناك عند الله ما يسمى «المحسوبية في الحكومات والادارات ، فقال محذراً منذراً :

« ليس بأمانيكم ولا اماني اهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا » [2] .

وذكر أن السعي والجهاد ، لا تختلف عنهما نتائجهما ، وأنه لا يشترط فيهما مؤمن ولا كافر ، فقال : **« وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى»** [3] .

وقال :

«كلا نمد هؤلاء وهؤلآء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا » [4] .

ونفى عـــن نفسه الظلم ، وتطفيف الكيل ، وبخس الحق ، فقال :

« وما ربك بظلام للعبيد [5] **»** وقال :

---

١ — سورة المائدة : ١٨

٢ — سورة النساء

٣ — سورة النجم

٤ — سورة الاسراء

٥ — سورة ق

« ان الله لا يظلم النـــاس شيئاً ، ولكن الناس انفسهم يظلمون [1] » .

وهدم القرآن عقيدة تمجيد النسل وتقديس السلالة ؛ والاستئثار ببيت خاص . كما كانت شائعة عند اليهود والمجوس ، وفي ايران والهند ، وأرسى قاعدة العمل والجزاء ، والسعي والكفاح وربط المسببات بالأسباب ، والنتائج بالأعمال في غالب الأحوال فقال :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره [2] »

وعاقب على الظلم وسفك الدماء البريئة ، والعبث بالأرواح ، في كل مكان وزمان ، وفي كل أمة وجيل ، وفي كل دين وشريعة ، وعاقب على السفاهة والرعونة وتعطيل العقل والمنطق ، وتضييع الأسباب والعلل ، والاسترسال إلى الأوهام والاحلام والجـــدل والكلام ، في كل بقعة من بقاع الارض وفي كل دور من أدوار التاريخ .

وذم الطاعة العمياء الرعناء لاي قائـد مزهو بقوته ، ومغرور بنفسه ، لا يرجو معاداً ولا يخشى حسابا ، ولا يرقب إلا ولاذمة ، ولا يعرف هوادة ولا رحمة فقال :

---

١ — سورة يونس
٢ — سورة الزلزال

« واتبعوا امر فرعون ، وما امر فرعون برشيـــد [1] »

وقال :

« ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من‌دون الله من اولياء ثم لاتنصرون [2] ».

وقداقترنت بهذه الاخلاق والصفات ، وبهذه المناهج من الحياة نقمـــة الله وسخطـــه بقطع النظر عن الاشخاص والذوات ، والافراد والجماعات ، والمذاهب والديانات ، فكان ما وقع — وياليته لم يقع — تصديقاً للقرآن ، وبرهانا ساطعاً على عدل الله ، وصـدق الاسلام ، وصحة ما جاء به الرسول ، ونطق به الكتاب والسنة :

« افلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عنـــد غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً [3] »

أما بعد ! فالكارثة فادحة تقصم الظهر وتذيب المهجة ، وتحير العقل ، وتحطم الاعصاب ، وكل مـــا يقال عنها قليل وقاصر ، ولكن هذه الامة ظلت تحمل النكبات ، وتمر بالكوارث .

كانت أولها وأعظمها : وفاة نبيها ، وارتـــداد عامة العرب ، وانحصار الاسلام والمسلمين — وجلهم بـــل كلهم من العرب — في مـــدينة صغيرة ، وقرية أو قريتين من الجزيرة يموج حولهم بحر

---

١ — سورة هود

٢ — سورة هود

٣ — سورة النساء

Marfat.com

الكفر والعداء ، وتكتنفهم امبراطوريتان عظيمتان قـــد هاجتا عليهم ، وطمعتا فيهم ، فهو كما يقول عروة بن الزبير : « كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقـــد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم » .

والثانية : تـــدفق الجيوش الصليبية والحكومات الاوروبية بأسرها وخيلها ورجالها على جزء صغير من المملكة الاسلاميةورميها للمسلمين عن قوس واحدة ، واستيلاؤها على القدس والمسجـــد الاقصى ، وكثير من المدن العربية الاسلامية، وتجديدها للاسلام، وتهديدها لمركزه ومرقد نبيه عليه الصلاة والسلام ، فهم في مدهم الاول ، كالوتـــد الحديدي يغرز في خشب نيء ناعم ، كما يقول « استيلي لين بول » .

وثالثتها : زحف التتار الوحوش على العـــالم الاسلامي ، وتحطيمهم له من أقصاه إلى أقصاه ، فكانوا يسرحون على جثته وأشلائه من غير خوف أو احتشام .

وقـــد كان العالم الاسلامي مقبرة واسعة يهيمن عليها الموت، ويسود عليها الصمت الرهيب ، وقد قطع المتفائلون الاقوياء الرجاء في نهضتهم .

ويـذكر هذا الحادث المؤرخون العرب ، فتنهمل عبراتهم ، وتتقطع أنفاسهم ، ويفضلون السكوت على الحديث ، والموت على الحياة .

ويذكره المؤرخ « ابن الاثير الجزري » فيقول : لقـــد بقيت

عدة سنين معرضاً عن ذكر الحادثة إستعظاماً لها ، كارهالذكرها ، فأنا أقـــدم إليه رجلا وأؤخر أخرى . فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هـــذا وكنت نسياً منسياً » .

وكانت هذه الكوارث خليقة بالقضاء على أمةمن أعظم الامم، ولكن الامة الاسلامية — وفي مقدمتهـــا وعلى رأسها الشعوب العربية — خرجت من تحت الركام ، ومن تحت الانقاض حية جديـدة ، قوية نشيطة ، ونفضت عنها غبار الموت ، وتراب القبر الذي تخيله أعداء الاسلام ، وأستأنفت السير في إيمان جديد ، وثقة مستأنفة ، ودم فائر ، وحماسة زائدة ، والتاريخ مستعد لاعادة نفسه إذا طلب منـــه ذلك ، واختير له السبيل القويم والصراط المستقيم .

إن هذه الكوارث الثلاث التي وقعت في عصور مختلفة ، وانتفاضة الامة الاسلامية بعدها ونهوض العرب ؛ يلتقي على نقطة واحدة ، وهي وجود قيادة مؤمنة ، راسخة العقيدة قوية الايمـان بوعد الله ونصره ، وبصلاح الاسلام وبالقوة الكامنة فيه ، شديدة التمسك بتعاليم الاسلام وآدابه وأخلاقه ، مجردة عن كل أنانية ، وعصبية جاهلية .

فكان على رأس الانتفاضة الاولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ورفقته .

Marfat.com

وكان على رأس الانتفاضة الثانية صلاح الدين الايوبي وانصاره.

وكان على رأس الانتفاضة الثالثة علماء ربانيون، ووزراء صالحون أسلم على أيديهم التتار أفراداً وأمة، وتحولوا حماة للاسلام وحملة للوائه في الشرق والغرب.

ويلتقي هؤلاء القادة على أنهم كلهم كانوا يدعون بدعوة الإسلام، ويقاتلون بسيف محمد عليه الصلاة والسلام. واستحقوا بذلك نصر الله وتأييده الخارق للعادة، وظهرت المعجزة فقد قال الله: **«أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون»** [1] **وقال: «وان جندنا لهم الغالبون»** [2].

يجب علينا — نحن معشر العرب والمسلمين — أن نستأنف السير من جديد، فنعترف — بالشجاعة التي عرفت بها العرب في التاريخ —.

إن الطريق الذي اخترناه لبناء كياننا الجديد، واسترداد مركزنا في العالم الجديد، وفي كسب القوة والوحدة، وفي إنقاذ فلسطين، كان طريقاً عقيماً منحرفاً يحبط المساعي ويخيب الآمال، وأنه لا يقترن بنصر الله وتأييده، حين لا عز ولا كرامة، ولا ظفر ولا انتصار إلا بنصره وتأييده.

ونعترف بشجاعة أن الله ربط مصيرنا بالإسلام وبمحمد النبي

---

١ — سورة المجادلة.

٢ — سورة الصافات.

الأمي ، وبتأييد دينه . « **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه اولئك هم المفلحون** »[1] « **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** »[2] .

ونعترف بشجاعة أن دعوة القومية العربية ، قـــد أخفقت وافتضحت وأنها كانت : « **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** »[3] .

ونعترف بشجاعة أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن الطريق الذي تسلكه الحكومات الدكتاتورية الشيوعية مبيد للبلاد ، مهلـــك للحرث والنسل ، وأنه لا يتفق مع الإسلام ولا مع الإنسانيـة ، ولا مع الحرية الحقيقية ولا المساواة ولا الجمهورية ، وأن الطاعة المطلقة العمياء لقائد أو أمير ، والخضوع له في خير وفي شر ، وفي طاعة وفي معصية ، وتسليطه على العقل والنفس تسليط الأصنـام والآلهة ، وعدم محاسبته في تصرفاته يجر النار والدمار على العباد والبـلاد .

وأن نعترف بشجاعة بأن الثرثرة وكثرة الكلام ، والدعاوى الفارغة لا تفيد شيئاً ، وأن التفريط في الاستعداد ، وعدم مقابلة

---

١ — سورة الاعراف .
٢ — سورة الزخرف .
٣ — سورة النور .

Marfat.com

الحديد بالحديد ، والغفلة والأخطاء الصبيانيـــة في ميدان الحرب جريمة لا تغتفر في عالم الأسباب .

ونعترف بشجاعة أن العرب في حاجة إلى إيمان جديد بالدين الخالد القويم ، وإلى حب يملأ جوانح النفس ، ويغمر العقل والقلب بعنوان مجدهم ، وسر شرفهم وكرامتهم ، ومنبع قوتهم وانتصارهم **« محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي »** ، الذي لا يعز العرب ولا الأتراك ولا الهنود إلا بالايمان برسالته الخالدة ، وتعاليمه الفاضلة وإمامته الدائمة ، وقيادته الرشيدة .

ونعترف بشجاعة أن المسلمين والعرب لا تفيدهم قوة أجنبية ، ولا تخدمهم مصالح سياسية للأجانب تتقلب مع الرياح ، وتخضع للمنافع والأرباح ، فليتوكلوا على الله أولاً ، ثم ليعتمـــدوا على سواعدهم وشجاعتهم وإيمانهم ، وأخلاقهم وصفاتهم ثانياً .

ويجب أن نلتجيء إلى الله أفراداً وأمة في ضراعة وابتهال ، ونتوب إلى الله توبة إجماعية نصوحاً ، ونبرأ اليـــه من كل حول وطول ، ونؤمن بأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا اليه ، ولانكون كالذين قال الله فيهم :

« فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » [1] . ولا كالذين قـــال فيهـــم :

---

١ — سورة الأنعام .

Marfat.com

« ولقـــد اخذناهم بالعذاب فما استـــكانوا لربهم وما يتضرعون »[1] .

بل نكون كالذين قال فيهم :

« وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليـــه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »[2] وللتوبة الجماعية المخلصة تأثير غريب في تغيير المصير وقلب الأوضاع. فقد حكى القرآن عن هود قوله :

« ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين »[3] .

وحكى قـــول نوح : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمـــددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً »[4] .

ولنصلح حياتنا وسيرتنا مع الله ومع عباده ، وفيما مكننا فيه ومتعنا به ، ولنترك المنازعة مع الله ، ومحادة رسوله ، ومعارضة

---

١ — سورة المؤمنون .
٢ — سورة البراءة .
٣ — سورة هود .
٤ — سورة نوح .

شريعته وقانونه ، ولندخل في السلم كافة ، فلذلك تأثير سحري في الفوز بالسعادة ، والعز والكرامة ، والنجاة من الحكام الظالمين ، والاعداء القاهرين فقد قال تعالى :

« وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً » [1].

وقال : **« ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض »** [2] . وهذا هو السلاح الذي أشار به موسى على قومه في مصر : **« واوحينا الى موسى واخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين »** [3] .

ألا إن العالم الغربي لم يغب له نجم إلا وطلع له نجم آخر ، ولم يتوار بطل إلا وبرز بطل آخر ، ولم يرض الله بذله وهوانه . ففي ذله ذل المسلمين ، وفي هوانه شماتة الاعداء المتربصين ، فلينفض عنه الغبار وليستأنف السير ، وليعد إلى مركزه ورسالته ، وصفاته الاولى :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا

---

١ — سورة الجن .
٢ — سورة الأعراف .
٣ — سورة يونس .

Marfat.com

يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقـــد رأيتموه وأنتم تنظرون »[1].

١ — سورة آل عمران .

Marfat.com

Marfat.com

قارنوا بين الربح والخسارة يا زعماء العرب

*** الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ! أما بعد !**

سادتي وإخواني ! يسرني ويسعدني أن أتحدث في « **نادي الوحدة الرياضي** » ، لأن الرياضة سواء كانت رياضة بدنية أو رياضة فنية تقوم على الاعتراف بالواقع وتقرير الحقائق، وتحكيم العقل والمنطق ، والتجربة والاختبار .

إنها تعتمد على واقع الحياة ، والحقائق الراهنة ، وعلى التجارب المتواصلة ، أكثر مما تعتمد على المعاني الشعرية والأخيلة البديعة ، والاسترسال في الأوهام والأحلام .

وأعتقد أن الإيمان بالله ، وأن الدين الحق يلتقيان مع الفكرة

---

* محاضرة ألقاها المؤلف في « نادي الوحدة الرياضي » بمكة المكرمة في الاثنين الأول من شعبان ١٣٨٧هـ ، وقد حضر الحفلة عدد كبير من أعيان البلد ، والأدباء والصحفيين وأساتذة الكليات ورجال المعارف والشباب المثقف .

ونص هذه المحاضرة نقل من المسجل . ونحن ننشره بناءاً على الحقائق التي جاءت في هذه المحاضرة ، والصراحة التي اتسمت بها ، ونحن في أشد الحاجة إلى هذه الصراحة في هذه المرحلة الدقيقة التي تجتازها الأمة العربية .

Marfat.com

الرياضية ، وبالأصح مع النفسية الرياضية أكثر مما يلتقيان مع الخيال والشعر ، والخطابيات والتخييلات ، إنما يلتقيان على الجد والصرامة ، وعلى الحيوية والواقعية ، ونحن المسلمين اليوم بصفة عامة والعرب بصفة خاصة في حاجة ملحة إلى هذه الطبيعة الرياضية .

إننا نزعم أننا مسلمون فلنكن مسلمين حقيقيين ، مسلمين في الحقيقة لا في الصورة .

إن قضية الذين يؤمنون بالدين الحق ـ أيها السادة ـ تختلف عن قضية الذين لا يؤمنون بهذا الدين اختلافاً كبيراً .

إن الذين يؤمنون بالدين الحق يجب عليهم أن يخلصوا لهذا الدين ، وأن يتمسكوا بلباب هذا الدين وبحقيقته ، وبمقدار ما يتمسكون به ويخلصون له ويجدون في سبيله يستحقون النتائج التي وعد بها الله الذي اختار هذا الدين ، والنصر الذي تكفل به .

نقرأ في القرآن أن الله تبارك وتعالى قد طلب من اليهود أن يكونوا متمسكين بدينهم ، مخلصين في دينهم صادقين ، آخذين باللباب غير القشور ، وبالحقيقة لا بالصورة والإسم، وجعل تمسكهم بالدين المقياس الحقيقي والميزان العدل فقال :

« قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة

Marfat.com

والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم » [1] .

وقال : **« ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** [2] **»** .

وقد عاقبهم الله على انحرافهم عن دينهم الذي اختارهلهم، والذي احتضنوه وزعموه ، عقوبة شديدة فقال :

« إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين » [3] .

فنحن المسلمين ونحن العرب بصفة خاصة ، إذا انحرفنا عن هذا الدين، أو تمسكنا به صورياً واسمياً فقط لا حقيقياً لا نستحق نصر الله ، ولم نستحق ما وعد الله به من الشرف . فمصير الأجيال التي تدين بدين ، مرتبط بهذا الدين ، تتشرف هذه الأجيال وتنتصر في المعركة بمقدار ما تتمسك بهذا الدين .

إن وضعنا — أيها السادة ، أيهـــا الاخوة الكرام — كما قلت يختلف عن وضع الأمم التي لا تدين بهذا الدين .

إننا لما قبلنا هذا الدين والتزمناه ، وأعلنا أننا مسلمون وجب أن نكون مسلمين ، وأن ندخل في السلم كافة ، وأن نعطي القياد

---

١ — سورة المائدة : ٦٩ .
٢ — سورة المائدة : ٦٧ .
٣ سورة الأعراف : ١٥٢ .

Marfat.com

للاسلام ، وأن نحقق فينا صفات المسلمين وأخلاقهم .

وجب أن نكون مسلمين في الحقيقة ، في اللباب ، في الروح ، وإن معاملة الله تبارك وتعالى على الحقيقة لا على الصورة ، كما نجرب كل يوم .

إن صورة أي دين حق ، إن صورة أي معنى من المعاني ، وأي حقيقة من الحقائق لا تغني ، لقد قال الله تبارك وتعالى :

وإذا رأيتهم تعجبك اجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » [1] .

فوضعنا الحاضر أننا ندعي هذا الدين ، أننا ندعي أننا مسلمون ، ونطلب من الله أن يعاملنا كمسلمين ، وأن تتحقق تلك الوعود وتلك النتائج التي قرأنا أمثلتها الرائعة في التاريخ ، ولكننا ننسى أو نتناسى أن هذه النتائج كانت - ولاتزال - تابعة للأسباب الطبيعية ، تابعة للمقدمات الصحيحة . فالماء ماء يروي ويشفي . والطعام غذاء يشبع ويغذي ، والدواء دواء ينجع ويبريء إذا كان على حقيقته .

فالماء لا يروي إذا لم يكن ماء ، وكان صورة للماء ، أو سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء . والنار إذا كانت صورة مجردة مهما كانت

---

١ — سورة المنافقون : ٥ .

Marfat.com

هذه الصورة دقيقة وصادقة ، فاننا لا نستطيع أن نستدفيء بها ، وأن نكتسب منها الحرارة أو النور ، وهذه طبيعة الأشياء ونظام الكون الذي يتحكم في هذا العالم .

إن كل ذنبنا وخطئنا أننا طلبنا من الصور ما لا تعطيه إلا الحقائق ، فكل هزائمنا وكل نكباتنا راجعة إلى أننا توقعنا من الصور، توقعنا من الاسماء، توقعنا من المظاهر، توقعنامن الدعاوى، توقعنا من الكلمات ـ تلك النتائج الحية الضخمة الحقيقية التي كانت ـ ولا تزال ـ منوطةباالحقائق .

إننا برزنا إلى الميدان كمسلمين بالإسم ، كمتظاهرين بالإسلام، كمتشبعين من غير شبع ، فلما وقع النضال بين الحقيقة والصورة خذلتنا الصورة في الميدان ، وافتضحنا أمام الناس ، أمام العالم .

إننا إذا برزنا إلى الميدان كمسلمين حقيقيين ، ولو كنا في قلة لتكررت قصة الحوادث التي نقرؤها في التاريخ ، ولتكررت تلك المعجزات التي كاد العالم يقطع الرجاء منها .

إن الحقيقة حقيقة منذ آلاف من السنين . لم تتغير ولم تتبدل، إذا كانت حقيقة الادوية لم تتغير ولم تتبدل كما نجرب كل يوم ،إذا كانت حقيقة النار هذه التي تخضع لنا ، والتي نلهبها ونطفئها ، إذا كانت حقيقة النار لا تزال منذ آلاف من السنين كما كانت في عهد آبائنا وأجدادنا وقبل آبائنا وأجدادنا كما يقص علينا التاريخ ، وكما

Marfat.com

تشهد بذلك الحفريات والآثار ، وإذا كانت حقيقة البحارهي حقيقة البحار ، وإذا كانت حقيقة الغذاء والماء لم تتغير مع الزمن ، فلماذا نعتقد أن الإيمان وحدهقد فقد حقيقته ؟

لقد كان الايمان يتغلب على هذه الحقائق كلها ، لقـــد كانت النار تفقد خاصيتها ، وتفقد حقيقتها وطبيعتها أمام هذا الايمان ؛ إذا كان الايمان أكثر التهاباً ، وإذا كان أكثر قوة ، وإذا كان أكثر حقيقة من هذه النار ، فقـــد أصبحت برداً وسلامـــاً على إبراهيم ، ولماذا لا تخضع ولا تنتكس هذه النار التي خلقهـــا الله لمصالح العباد ، التي خلقها ليقضي الناس بهـا مآربهم ، التافهـــة أحياناً ، والسطحية أحياناً ، فلماذا لا تخضع هذه النار ولا تنهزم أمام الايمان ، الذي خلق لمصلحة الانسانية الكبرى ، لمصلحـــة الانسانية الخالدة ؟

فلتخضع النار أمام هذا الايمان ، ولتخضع البحار أمام هـــذا الايمان ، ولتخضع الجبال أمام هذا الايمان ، ولتتغير هذه القوانين الطبيعية التي جربها الناس من آلاف من السنين أمام هذا الايمان الجديد ، الايمان الفتي ، الايمان الدافق بالحياة .

تذكرون وقعة المدائن . لما بلغ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بجيشه إلى دجلة وهي تفيض وترمي بالزبـــد وقف هنيهة . ، وقف وقفة تأمل ، وقفة استعراض ، وقال لسلمان: ماذاترى ،

هل نخوض هذا النهر أو ننتظر السفن ؟ فقال سلمان رضي الله عنه : إن هذا الدين لجديد » ! .

يعني أن الله اختار هذا الدين ، وقرر أنه سيظهره على الاديان كلها . وأنه يحيي به الانسانية التي ماتت . فأنا لا أصدق أن هذا الدين سينهزم ويتراجع أمام نهر من الانهار ، ولماذا لا يخضع هذا النهر أمام هذا الدين ؟ لماذا يخضع هذا الدين أمام هذا النهر؟ هذه العقلية المؤمنة هي التي كانت تسيطر على نفوس المسلمين .

ثم قال له سلمان : ولكن أنظر في الجيش ، هل ظهرت فيه ذنوب وانتشرت ؟ فاذا رأيت أن هذا الجيش بعيد عن هذه الذنوب فصدق أن الله سبحانه وتعالى ناصره ، وأنه سيتغلب على هذه الحقيقة الضعيفة ، وكذلك كان .

تقرؤون في التاريخ أن جيش المسلمين قد خاض النهر ، وكان المسلمون يتحدث بعضهم إلى بعض ويمازح بعضهم بعضاً ، كأنما يمشون على البر ، فلما رآهم الفرس قالوا كما نقله « الطبري » بالنص: (ديوان آمدند ، ديوان آمدند) يعني جاء الجن ، جاء العفاريت .

إن هذا الايمان هو الايمان ، وأنه لا يزال يحمل تلك القوة التي تقهر القوى الطبيعية ، وتتغلب على فلسفة القلة والكثرة ، والضعف والقوة التي آمن بها الضعفاء والمقلدون ، ولكننا قد أفلسنا في هذه القوة واعتمدنا على ما يشترك فيه المسلم والكافر ، والمصلح والمفسد ، والمطيع والعاصي ، وقد يتفوق فيه الكافر على المؤمن.

Marfat.com

إن فضل البندقيه أيها الاخوان هو الرصاص ، فاذا فقـــدت البنـــدقية الرصاص كانت أضعف من الخشب ، إن الخشب هو أنفع واـدى من البندقية الفارغة التي ليست فيها رصاصة ، لأن الخشب يستعمل بأساليب متنوعـــة ، وبطرق كثيرة ، ولكن البنـدقية لا تستعمل إلا بطريقة واحدة ، إن قوتها تتوقف على رصاصتها ، فاذا فقدت الرصاصة فقد كل شيء .

فالمؤمن إذا فقد الايمان ، إذا فقد الاعتماد على الله ، إذا تجرد عن الصفات التي أكرمه الله بها ، واختص بها من بين سائر الامم ، أصبح كسائر الناس ، وأذل وأضعف منهم أحياناً ، إن النار نار إذا كانت فيها حرارة ، فاذا فقدت هذه الحرارة فليست لها قيمة ، إن الملح ملح إذا كانت فيه ملوحة ، فاذا فقد الملح الملوحة ، أصبح الحصى وأصبح الخزف أثمن منه ، يغني عن أشياء ويفيد في مجالات كثيرة ، وفي أعمال كثيرة ، ولكن الملح لا ينفع إلا إذا كانت فيه الملوحة .

إن المسلمين كانوا أقوياء بايمانهم ، أقوياء بهذا الدين الذي كانوا يؤمنون به ، أقوياء بأنهم كانوا يؤمنون بحقائق يكفر بها أو لا يعرفها الآخرون ، فكانوا ينظرون الى عالم لا شأن لغيرهم بـــه ، وهو الذي أشار إليه تبارك وتعالى بقوله : « **ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً** »[1] .

---

١ – سورة النساء : ١٠٥

Marfat.com

فاذا اصبح المسلم لا يرجو من الله شيئاً ، فانه قد أصبح في مستوى هؤلاء المـاديين ، بل أخفض مستوى من هؤلاء الذين لهم آمال طويلة عريضة في الدنيا .

نحن المسلمون ، نحن العرب أيها الاخوان ، برزنا إلى الميدان بهذه الحياة المهلهلة السخيفة الناعمة الرقيقة ، المريضة العليلة، الضعيفة الهزيلة المروعة الثقيلة ، التي يشترك فيها غيرنا بل يمتازون عنـــا بأن عنـدهم من الصرامة والجد ، ومن العزم وقوة الارادة ومن الاستماتة في سبيل المبـــدأ ، والثبات على العقيدة ، ومن التجرد لمقاصـــدهم ما لايوجد عندنا في بعض الأحيان ، فلماذا ننتصر عليهم ــ ؟ ولماذا نشكو ؟ ولماذا نعتب ؟ ولماذا تساور نفوسنـا وعقولنا هذه الظنون وهذه الريب التي تساورنا جميعاً ؟ بماذا نمتاز عنهم ؟ .

الحق أن أعداءنا متفوقون علينا ، كما قلت بالصرامة والجـــد وبالاستعداد وإعداد القوة ، وبالانسجام والاتحاد ، وإن المسلمين كانوا ينتصرون على المنافسين، على الأمم المعاصرة بايمانهم ،بأخلاقهم، بزهادتهم في الدنيا ، باستهانتهم بالزخارف والمظاهر ، بحنينهم الى الشهادة ، وتطلعهم إلى عالم الغيب وبايثارهم الموت في سبيل الله على الحياة في اللذات والشهوات .

لقـــد كانت الجيوش تقاتل للامراء ، كانت تساق إلى ساحة الحرب سوقاً ، وتحشر إلى ميدان القتال حشراً ، وكانت الحروب تفرض عليها فرضاً ، وهي راغمة مكرهة ، تلعن هذه الحكومات

المغتصبة الظالمة ، وكانت تقاتل رغم أنفها ، ورغما عن نفسهـــا ، وكان المسلمون إنما يقاتلون ليكرموا بالشهادة ، ولينالوا ثواب الدنيا والآخرة ، وفرق بين الذي يطلب الحياة ويكره الموت ويبحث عن سبيل النجاة ، وبين الذي يبحث عن الموت أينماوجد ، يبحث عنه في مظانـه وغيرمظـــانه .

السبيل الوحيدللنصر أيها الاخوان !أن نكون مسلمين حقيقيين ، وأن نحمل تلك الجذوة الايمانيـــة التي كانت تلتهب نفوسنا ، وكانت جديرة بأن تحرق الدنيا كلها ، إذا عادت هذه الجذوة ، جذوة الايمان وشعلة الحياة أعاد التاريخ نفسه .

إننا لما أخلصنا للاسلام في الماضي ، ولما اندمجنـا في الاسلام ، وتجردنا عن كل شعار من شعائر الجاهلية ، وحملنا مشعل الاسلام في أيدينا ، أصبحنا سادة العالم ، كنا نسيطر على أكبر رقعـة من رقاع العالم المتمدن المعمور ، وانتشرت عقيدتنا وحضارتنـــا ، وآدابنا وأخلاقنا ، وعلومنا ولغتنا ، كما ينتشر ضوء النهار .

وكانت لغتنا تنتشر في العالم بالسرعة التي لم تعرف لاي لغة ، تنتشر من غير سلطة سياسية ، ومن غير استعمار .

لقد أصبحت هذه اللغة العربية ، لغة العلم ، لغـة الثقافـة ولغة التأليف وتغلغلت في أحشاء العالم الاسلامي ، وكان المسلمون في كل بقاع الارض يتنافسون في تعلمها ، وفي التضلع منها .

كانوا عجماً بالثقافة وبالوراثة وباللغة ، وبالنشأة ، ولكنهم

Marfat.com

كانوا يؤثرون هذه اللغة للكتابة والتفكير والفلسفة والعلم .

إنكم تعرفون اولئك النوابغ الذين نهضوا في العالم الاسلامي في القرون المختلفة ، هذا أبو علي الفارسي ، وهذا جارالله الزمخشري وهذا مجد الدين الفيروز آبادي ، وهذا السيد المرتضى الزبيدي الهندي ، كلهم كانوا عجماً .. من أجبرهم على تعلم هذه اللغة ؟

إن أبا حامد الغزالي كان يؤلف كتابه الاثير الحبيب باللغة العربية ، ويؤثر اللغة العربية للتأليف ، ثم يترجم وينقل هذا الكتاب إلى لغة أمه وبلاده ، كما فعل في « **إحياء علوم الدين** » و« **كيميائي سعادت** » مع أنه فارسي من « طوس » وهكذا كان اولئك النوابغ الذين لا يحصيهم إلا الله .

إنني لا أذكر لكم العلوم الدينية ، لان الدوافع الدينية كانت قوية دائماً ، ولعلكم تعلمون بأن هناك دافعاً دينياً ، ولكنني أضرب لكم مثلاً باللغة العربية وآدابها ، ما الذي فرض هذه اللغة على الأجيال كلها التي كانت لا تتصل بهذه اللغة بنسب ، ولا بنشأة ولا سياسة ، ولا بادارة ؟ .

ولم تزل اللغة العربية هي لغة العلم ولغة التأليف في بلاد عريقة العجمة ، في بلاد توارثت لغتها واحتضنتها ولا تزال تعتز بها ، وهي لغات غنية خصبة ، فيها ثروة علمية هائلة ، ومع ذلك كله ، لاتزال اللغة العربية هي اللغة الحبيبة المفضلة في بلادنا الهند وباكستان .

إنني أذكر لكم أيها الأخوان على سبيل المثال : أنني كنت

Marfat.com

سنة ١٩٦٠ م في « كيرالا » بالمنطقة الجنوبية في الهند ، وهي بلاد عريقة في الحضارة الهندية ، وقد كنت مضطراً في بعض الأحيان للتفاهم مع إخواني المسلمين هناك باللغة العربية ، فما الذي نشر هذه اللغة العربية في تلك البلاد البعيدة ؟ وما الذي جعلها تسيطر في بعض الأحيان على اللغات المحلية ؟ هي العاطفـــة الدينية ، هي الروح الدينية ، التي تغلغلت في الأحشاء ، هي رابطتها بالقرآن ، وصلتها بالسنة ورابطتها بالاسلام .

إذا انقطعت هذه الرابطة ــ لاسمح الله بذلك ــ كما يريـــد كثير من القوميين ، فلا صلة لنا نحن العجم ــ بهذه اللغة ، على غناها وعلى ثروتها ، وعلى جمالها وعبقريتها ، إن الشيء الوحيد الذي يربط هذه الشعوب كلها على اختلاف ألسنتها وثقافاتها وأوطانها وبلدانهـــا ، باللغة العربية هي الرابطة الدينية الروحية ، هي التي تجعل المسلمين في بلاد العجم يغارون على هذه اللغة أكثر مما يحرصون على تعلم اللغات الغربية .

جربوا أيها القوميون . وجردوا العروبة، وجردوا اللغة العربية من الرابطة الروحية الدينية ، التي تربط الشعوب والأمم بهـــذه اللغة وبهذه البلاد ، ثم انظروا ماذا تفقدون وماذا تجدون ؟ ماهي نسبة ربحكم من خسارتكم ، وما هي نسبة إفلاسكم من كسبكم ؟ ستعيشون في عزلة عن العالم .

إن هذا العالم الاسلامي الفسيح الذي لا يزال من ورائـــكم وهو يؤيدكم في جميع قضاياكم والذي ينتظر أن تسمحوا له بالخوض

Marfat.com

في هـذه المعركة، إن هذا العالم تنقطع صلته عنكم . وتعيشون في عزلة .

خذوا القلم ، وخذوا أكبر صفحة من ورق ، واكتبوا فيهـا هذه النقطة التي كانت عليها العرب قبل الاسلام . ثم مـدوا هذه النقطة بفضل اللغة العربية ، وفضل النسب العربي ، وفضل الثقافة العربية ، وفضل الخصائص العربية ، وفضل كل ما تستطيعون ان تفرضوه ، ثم انظروا إلى أين تمتد هذه النقطة ؟ الاسلام هو الذي مد هذه النقطة وعرضها وطولها ووسعها، الى أن وصلت إلى اقاصي العالم المتمدن المعروف .

إن هذه الروح الاسلامية لما فقدناها ، وقلنا : إنها عتيقة ، إنها بالية ، إنها « رجعية » ، ورجعنا الى هذه القوميات ، فماذا وجدنا عوضاً عما فقدنا ؟ ما هو الشيء الوحيد الذي اكتسبناه ؟ إن العالم كله بما فيه من سياسة وإدارة ، وتجارة وتبادل ، وحرب وصلح ، يقوم على الموازنة بين الربح والخسارة ، والانفاق والاكتساب ، والوارد والصادر .

إن التاجر الصغير يوازن بين الدخل والصرف ، وإذا تعطلت الموازنة تعطل نظام المدنية ، وأصبح الأمر فوضى ، فلماذا لا نقارن نحن العرب، بين ما ربحناه بالقومية ، والاشتراكية ، التقدمية ، وبين ما خسرناه باقصائنـــا للعنصر الديني ، وتجردنا عن الروح الدينية ، وشننا الغارة على ما نسميه « الرجعية » ؟ .

Marfat.com

لقد كنا نسمع أن « الانسان العربي المارد العملاق » سيخرج من القمقم ، وسيدهش العـــالم ، وسيشغل سمع الزمان وبصره ، وبحثنا عن هذا « المارد العملاق » في كل مكان فما وجدنا له عيناً ولا أثراً ، بل الذي وقع أن القزم اليهودي ، هذا الانسان التافه ، الانسان الأفاق ، هذا الانسان الذليل ، الذي كان مضرب المثل في الجبن والنذالة ، تسلط على « المارد العملاق » لما فقـــد هذا العاطفة الدينية ، وفقـد تلك الاسلحـــة (المعنوية) التي كان يتسلح بها .

لقد وقع ما لم يكن يتوقع في المنام قبل أيام ، لقد لحق بنـا العار الذي لا يغسله ماء سبعة أبحر ، والتصق بكل مسلم ، وبكل عربي في كل بقعة من بقاع الأرض ، ماذا استفدنا من هذه القيادات اللادينية التقدمية ــ ؟ ماذا استفدنا من هذه القومية والاشتراكية ؟.

إن هذه الحياة كلها قائمة على التجربة . فإذا أصبحنا لا نستفيـــد من التجارب ولا نتلقى منها درساً ، ولا نصحح بها خطأ ، واعتمدنا على الأخيلة والدعاوي . فقـــد تعرضنا لخطر عظيم ، قد يودي بحياتنا .

وإذا فقدنا هذه الثروة الهائلة التى اكتسبناها عبر القرون والأجيال ، والتي هي تراث المـــدنية ، وتراث الانسانية ، إذ أصبحت الانسانية لا تعتمد على التجارب فاننا نفقد الثقة بمستقبل الانسان ، وإذا أصبح الانسان لا يؤمن بتجاربـه ، ولا يزال يسترسل في

Marfat.com

الأوهام والخيالات ، ولا يزال يعيش في البرج العاجي ، فلا معقل للانسانية .

إن العلوم الرياضية كما قلت تقوم على التجارب ، إنها تقوم على الاستقراء، وقد نهضت المدنية نهضتها لما اعتمدت على الاستقراء بدل القياس ، فماذا وجدنا لمّا آثرنا على الاسلام أو على الأقل لما تنكرنا للاسلام ، ولما أنكرنا فضل الاسلام في تكوين مجتمعنا ، ولما أبينا أن نلتجيء إلى الاسلام ؟ إن هذه السنين تكفي للتجربة .

لقد اجتمع في الشعوب العربية الشقيقة العزيزة من الثروات والخيرات ، ومن سائل الحياة ، ومن وسائل المقاومة ، ومن وسائل النشر والدعاية ، ما لم يتهيأ لشعوب كثيرة .

لقد كان كل شيء مهيئاً لتحقيق النصر ، فماذا كان ينقص هذه الشعوب ، إنما كان ينقصها الاخلاص للاسلام ، إنما كانت تنقصها الشجاعة التي لا يخلقها إلا الايمان والعقيدة .

كان كثير من القادة يتحرجون ويتضايقون بالتصريح بالاسلام، لقد كان ثقيلا عليهم أن يقولوا نحن مسلمون ، ونحن نعتمد على الله ، ونعتمد على الايمان ونعتز بالاسلام ، فماذا كانت النتيجة ،هل ننتظر نتيجة أشنع وأبشع ؟ .

لقد وصلنا إلى الدرك الأسفل ، إلى درك ما بعده درك كيف يجوز لنا بعد الآن أن نتنكر للاسلام وأن نلتجيء إلى هذه الأصنام ، التي نحتناها بأيدينا ، ولا نزال ننحتها ونجملها ، ولا نزال

Marfat.com

ندخل عليها تحسينات (**أتعبدون ما تنحتون**) ؟ [1]

لقد عكفنا على هذه الأصنام نعبدها ، ورفضنا عبادة الله تبارك وتعالى ، واستنكفنا عن الانتساب إلى الاسلام وحده ، فأين ذلك « المارد العملاق » الذي بشرنا به ؟

لقـــد كان الصحابة رضي الله عنهم أولئك النحاف الضعاف ، الفقراء الأميون أولئك الذين كانوا لا يقـــام لهم وزن . كانت تزدريهم الأعين ، ثيابهم مرقعة . ونعالهم مخصوفة ، وأجفانهم بالية ، ماذا صنعوا من الأعاجيب ، وكيف اكتسحوا العالم من أقصاه إلى أقصاه ، وفتحوا نصف المعمورة في نصف قرن ، وكيف أقاموا دولة ، وشيـدوا حضارة ، وأخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؟

إننا إذا تمردنا على هذه الحقائق ، وإذا طمسنا على هذه التجارب ، فاننا نسيء إلى كرامة الانسانية ، وننحط إلى مستوى أقل من مستوى الحيوانات .

إن الحيوانات تعتمـــد على التجارب ، إن الحيوان إذا جرب شيئاً فانه لا يعود إليه في الغالب ، فمالنا نعود إلى ما جربناه مراراً وتكراراً ؟ إن الحيوان إذا آذاه إنسان أو أهانه يصبح له عـدواً ، إنه يحمل له حقداً ، إنه يبتعد عنه ، ولكننا نحن مستعـدون أن

---

١ — سورة الصافات : ٩٦

Marfat.com

ننخدع بمن خدعنا ، ونلدغ من جحر مرتين بل مراراً .

إن الذين جروا علينا هـذه الكارثة لا يزالون يسيطرون على عقول كثير منا ؛ ولا نزال نخضع لهم بالاجلال والاكبار ، لو كانت عنـدنا بقية من حياء ، بقية من غيرة ، بقية من إنسانية ، لحاكمناهم محاكمة المجرمين ، القاتلين الذين يقتلون الأمم ، ويدوسون كرامة البلاد ، إنهم جنوا على شخصيتنا ، جنوا على شرفنا ، جنوا على تاريخنا ، وأكبر جناية جنوها علينا على مر التاريخ أنهم جنوا على تاريخنا .

لقد كان تاريخ الاسلام رصيدنا نلتجيء إليه ، ونستمد منه في كل حين . كان من أقوى الوسائـــل لاثارة الشعور الاسلامي ، ولالهاب الجذوة الايمانية في الصدور، لقد كان هذا التاريخ الاسلامي العربي ، تاريخ الفتوح الاسلامية ؛ سندنا في خطاباتنا وفي كتاباتنا، كانت العصا التي نتوكأ عليها دائماً ، كعصا موسى التي كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه . وكنا نفتخر به ونستشهد أمام مواطنينا في بلاد العجم ، فنقول : هؤلاء أبطالنا، هؤلاء قادة الفتح الاسلامي هذا خالد بن الوليد ، وذلك سعد بن ابي وقاص ، وهذا عقبة بن نافع ، وهذا طارق بن زياد ، وهذا محمد بن قاسم ، ونقول :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أولئك الذين خرجوا بحفنة من البشر ، بقلة من العدد ، فقراء لازاد عندهم ولا مدد ، وفتحوا هذا العالم الواسع ، ولكن هذه النكبة أفقدت هذا التاريخ الاسلامي الشيء الكثير من روعته

Marfat.com

وجلاله ، وأضعفت ثقة المواطنين في كل بلد بهذا التاريخ،وأصبحوا يشكون في صدقه ، ويقولون : (أساطير الاولين) .

كيف نصـــدق هذا التاريخ . وكيف نصدق أن تلك القلة غلبت الكثرة ، وهـــذا العالم العربي، وهذه الحكومات العربية كلها ،خفت إلى إسرائيل ، ورمت بثقلها عليها ، وتحدتها تحدياً لم نسمع مثله في الزمن القديم ، تحدياً أصم الآذان وخلع القلوب ، ولكن ماذا رأينا ؟

رأينا هذه الحفنة البشرية،هؤلاء الشذاذ الافاقين ، هذه الشرذمة القليلةالتي لفظتها أراضيها وبلادها ، استولت على هذه الحكومات، وهنالك تخرس الالسن وتتنكس الرقاب ، ويخون الجواب ، إنها خسارة لاتعوض . إنها لغز لا يفض !

ماهو المتوقع والمعقول على إثر هذه النكبة أيها الاخوان ؟ أليس أن نحكم على الحوادث حكماً صحيحاً ، وعلى الرجـــال والشخصيات التي تحملت مسؤوليتها ، نقرر أن هؤلاء قد خسروا المعركة ، وأنهم ليس جدرين بالقيادة ، بل إنهم كانوا سبب النكبة وأن الطريق الذي اختاروه طريق عقيم مسدود، وأن نتبرأ منهم ، ونحملهم تبعة هـــذه الهزيمة ، وهذه المأساة ، وأن لا نشعر بميل إليهم .

إن الامة إذا كان فيها شعور ، إذا كان فيها وعي ، حاسبت هؤلاء القادة حساباً شديداً.

Marfat.com

إنني لا أتحدث عن الوعي الايماني ، الوعي الذي كان يتصف به صحابة الرسول ﷺ ، والتـــابعون لهم باحسان . إنهم كانوا لا يخضعون للرجال ، إنهم كانوا دائماً يخضعون للحقائق ، ويحاسبون الخلفاء والأمراء على تصرفاتهم وأخطائهم ، ويقولون كلمة حق عند سلطان جائر ، ولكنني أتحدث عن الوعي السياسي بل الوعي المدني الذي رأينا مظاهره ، وأمثلتـــه الرائعة في الشعوب المادية ، التي لا تدين بالاسلام .

إن الانجليز والفرنسيس لا يغتفرون للذي يجني عليهم ويلوث كرامتهم ، إن الانجليز لم يغتفروا للمستر (ايدن) رئيس وزراء بريطانيـا الأسبق ، لما أخفق في معركة السويس ، وألحق بالانجليز العار ، ماذا فعل ايدن ؟ إنما أخطأ في التقـــدير ، ولكن الشعب الانجليزي لم يسامحه ولم يغتفره ، وقال له : تفضل واترك كرسي الحكم ، واذهب إلى زاوية من التاريخ ، وإلى مؤخر الشعب ، وكذلك توارثت أمم كثيرة ، بغض الرجال الذين تآمروا عليها ، وامتهنوا كرامتها ، ولوثوا شرفها .

هذه طبيعة في الانسان، وهو السر في رمي الجمرات، وقـــد حافظت الشريعة الالهية على هذه الطبيعة ، فما هذا الرمي عنـــد الجمرات إلا إثارة للبغض والترة التي يجب أن نحملها لعدونا الأكبر، الذي كان سبب شقائنا ، والذي حاول مراراً أن يمنع إبراهيم من امتثاله أمر الله ، والذي لا يزال قائماً لنا بالمرصاد .

إن العرب عرفوا في التاريخ بالغيرة الشديـدة ، عرفوا بالنخوة

Marfat.com

والاباء ، عرفوا بالحكم العـــادل على أمتهم وعلى أمرائهم ، وعلى صالحيهم و زهادهم . لم يهابوهم ، ولم يداهنوا ، ولم يمتنعوا عن كلمة الحق ، هؤلاء العرب نرى عدداً من شبابهم اليوم في بلاد كثيرة ، لايزالون خاضعين لاولئك القادة الذين ورطوهم في هذه النكبة ، ويصدق عليهم قول شاعرهم القديم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

لقـــد جربنا أيها الاخوان : أننا لما تجردنا عن الدين ، ولما تنكرنا للاسلام ولما أفلسنا في الروح الدينية فقدنا كل شيء ، إننا لم نعد بشيء . إننا لم نرجع إلا بخفي حنين ، هذه التجربة تكفينا وتغنينا عن كل تجربة جديدة ، فلنعد إلى الاسلام .

لنعد إلى الاسلام بشجاعة ، لنعد إلى الاسلام بصراحة وصدق. إن الصـــدق ينجي والكذب يهلك ، إن الصدق هو الذي ينفع الافراد و الامم ، إن النفاق لم يغن عن الاقوام ولا يغني .

إن كل محاولة قامت في دور من أدوار التاريخ لصرف هـذه الامة العربية عن منبعها الاصيل ، عن منبعها الذي كانت تستمد منه الايمان وتستمد منه القوة ، والشرف والوحدة ، أخفقت وباءت بالفشل الذريـع ، سواء كانت محاولة مسيلمة الكـذب، أو محاولة المتنبئين في هذه الجزيرة أو كانت محاولة القراطمة في ناحيـــة من نواحي هذه الجزيرة نفسها ، أو كانت محاولة الباطنيين والفلاسفة ، أو كانت محاولة القوميين في العهـــد الاخير ، بمفهومها العقائدي

Marfat.com

وفلسفتها القائمة بذاتها .

إن كل محاولة قامت لصرف هذه الامةالعربية عن إيمانها،وعن قائدها الذي قدر الله أن يكون الامام الخالدوالنبي الخالدلهذه الامة ، الذي هو عنوان شرفها ، ورمز قوتها ، وسر انتصارهـا ، إن كل محاولة بذلت لصرف هذه الامة عن قائدها وإمامها ، وعن دينها وعقيدتها ، وعن رسالتها ودعوتها وعن منبعها ومرجعها ، فشلت وستفشل ، لنقرر أنه لا ملجأ من الله ولا منجى إلا إليـــه ، فان قصتنا هي قصة أولئك المتخلفين ، الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، وقال الله فيهم) .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم»[1] لقد ضاقت علينا الارض بما رحبت ، هذا مما لا شك فيه ، سيروا في الارض وانظروا كيف أصبحنا أذلاء ، كيف سقطنا فى عيون الناس وضاقت علينا أنفسنا ، وهذا ما نشعر به وتشهد به قلوبنا ، وقـد رأينا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، فالطريق مظلم ومســـدود ، فلنقرر الحقيقة ولنعترف بالواقع، ولنقل بصراحة وشجاعة : إننا لم نستفد شيئاً من الثورة على الاسلام، فلنحكم على أنفسنا ،ولنقل: لقـد أخطأنا ، وإننا نرجع إلى حظيرة الاسلام ، ونرجع إلى قوة

١ — سورة التوبة : ١١٩

Marfat.com

الاسلام ، التي لا تزال منتظرة لان تسعفنا ، وتأخذ بيدنا ، وأن ترفعنا من هذا الحضيض الذي تردينا فيه.

أيها السادة الكرام ! إنني أشعر بأنني قد قسوت بعض القسوة على إخوني الذين أحبهم وأجلهم ، والذين قد ربط الله مصيري بمصيرهم ، والذي جعل الله شرفهم شرفي وهوانهم هواني ، وقد صرخت بهذه الحقيقة ، وأرسلتها كلمة مدوية في الهند في كل مناسبة .

لقد قلت لهم :إن مصير المسلمين في كل بلد مرتبط بمصير العرب، فاذا عز العرب عز الاسلام والمسلمون ، وإذا ذل العرب ذل الاسلام والمسلمين ، أولئك الذين لا أعدل بهم قوماً ولا أعدل بكتابهم كتاباً ، ولا أعدل بلغتهم لغة ، ولا أعدل بحضارتهم حضارة ، على ذلك أحيى وعلى ذلك أموت ، وما حملني على هذه الصراحة ، أو على هذه المرارة ، إلا أنني آخذ بنصيبي مما أنتم فيه ، فإلى الراية المحمدية أيها العرب ، لا إلى الرأية القومية ، ولا إلى أي راية جاهلية .

لقد أنقذكم الله من هذه الجاهلية ، وأنقذ أمماً وبلاداً بفضلكم أيها العرب ، فلا تعودوا إلى هذه الجاهلية ، لقد كانت لهذه الأمم جاهليتها ، وحضارتها وشعاراتها ، وأنساب تفتخر بها ، وآداب وتقاليد تعض عليها بالنواجذ ؛ ولكنكم حملتم إليها رسالة الاسلام، فأنقذتموها من هذا المستنقع ، فكيف يجوز لكم أن تعودوا إلى

Marfat.com

جاهليتكم .

وأنتم أيها الاخوة العرب ، يا أهل مكة ، يا سـدنة البيت الحرام ، بنيتم بيدكم العفيفة النظيفة ، الكريمة الشريفة ، هذا البيت ليعلو على البيوت كلها ، وليعلو على الاصنام ؛ ويعلو على الهياكل. كيف يجوز لكم أن ترجعوا إلى هـذه الهياكل الظالمة المظلمة ؛ الوسخة المتعفنة ؟ .

من هنا ارتفع الصوت الذي دوى في الآفاق ؛ وحطم الاصنام، وفك السلاسل والاغلال ، وغير مجرى التاريخ ، وقلب تيـار الحوادث ، من هنا انبثق ذلك النور الذي انتشر في العالم ، وأنقذ الامم . وأحيـا الرمم ، وأحيا النفوس البشرية ، فكيف يجوز لكم أن تعودوا إلى هذه الجاهلية البالية التي أصبحت اوربا تعافها ، وأصبحت الامم الجـاهلية التي عكفت عليها قرونا وأحقاباً تتبرأ منها ؟

إذا كانت اوربا قد رفضت هذه القوميات ، وعرفت معرتها ، وعرفت جنايتها على الانسانية ، كيف يجوز لكم أن تتناولوا هذه اللقمة التي لفظتها اوربا من فمها ، كيف يجوز لكم أن تتلقموها ، أنتم يا كرام الناس ، يا أولئك الذين كانوا يرفـدون القبائل ، ويصدقون على الفقراء ؟ .

العالم كله في ضيافتكم وعلى مائدتكم ، فحرام عليكم أن تعيشوا على فتات مائدة غيركم ، على العظام البالية النخرة .

Marfat.com

إن موقف كثير من إخواننا العرب في غير هذه البلاد موقف يحرجنا ، موقف يحرج الدعاة في الهند وباكستان وبلاد العجم ، موقف يحرج أولئك الذين لايعرفون غير الاسلام ديناً ، وغير القرآن كتاباً ، وغير الشريعة نظاماً و قانوناً ، وغير محمد بن عبد الله إماماً وقائداً .

عطفاً عطفاً ،رفقاًرفقاً ، أيها العرب،لا تحرجونا عند مواطنينا، لا تحرجونا في بلاد بعيدة عن مهد الاسلام .

إذالم تحسنوا إلينا ، فبالله لا تسيئوا إلينا، إذا لم تزيـــدوا في قوتنا ، فبالله لا تنقصوا من قوتنا ،من حماسنا ، من ثقتنا بالاسلام، من ثقتنا بنفوسنا المؤمنة ، من ثقتنا بتاريخنا الاسلامي ، من ثقتنا بأنكم أصحاب الفضل في إسلام هذه الامم، التي كانت تتسكع في الجهالات ، وكانت ترسف في القيود والاغلال ، وكانت تتورط في الاوحال والمستنقعات .

رفقاً ، أيها العرب ، رفقاً ياقادة مصر ، رفقاً ياقادة سورية ، إرحموا المسلمين ، أولئك الذين يكافحون الشعارات الجاهليـــة ؛ ويهتفون بالاسلام ، ويهتفون بالقرآن .

إن موقفهم دقيق ؛أنتم الذين أنشأتم هذه الاجيال المؤمنة. وكانت في جاهليتها تعبد البقر وتعبد الشجر والحجر ، ولا تزال منها بقية في آسيا وأفريقيا. إنها تنظرإليكم كفقير بائس و كجائع عطشان ، وتقول لكم بلسان الحال: (**افيضوا علينا من المـــاء**

Marfat.com

أو مما رزقكم الله) . أفيضوا علينا من مائدة محمد بن عبد الله ﷺ لا تكونوا أقل اعتزازاً به وافتخاراً من الاعاجم ، أنتم أولى بـه من أولئـك الذين لم يتصلوا به بنسب ، ولم يتصلوا به بلغة ، ولم يتصلوا به بوطن،ولم يتصلوا به بدم .

ترون الرجل في الهند إذا ذكر اسمه ترنحت أعطافه، واهتزت مشاعره، والتهبت جذوته وتفتحت قريحته ، فأصبح ليثاً مغواراً، هؤلاء الاتراك لايزال لهـــذا الاسم سحر في نفوسهم ، ليس لكلمة أخرى من أسماء السادة والقادة .

قولوا محمداً وسلوا ماشئتم ، استخدموهم كالعبيد ، استخدمونا نحن الهنود باسم الاسلام . كيف يأتي الناس يسعون على رؤوسهم، وعلى عيونهم إلى هذا البيت من كل فج عميق ، ولا تزال تلك القوة الكبرى التي لم يعرف العالم في تاريخه الطويل قوة أكبر منها ، فوالله إن أوربا ترتعـــد فرقاً من هذه القوة ، وإنها نامت النومة العميقة الحلوة بعد هذه النكبة .

إنني أرجوكم أن تسامحوني إذا قسوت بعض الشيء ، فمادفعني إلى ذلك إلا الاخلاص،إن مثلي ومثلكم كما قال رسول الله ﷺ :

« المحيا محياكم والممات مماتكم » .

فوالله لولا هـــذه الرابطة الحبيبة ، الرابطة التي أكرمنا الله بها ، لكان لنا تاريخ غير هذا التاريخ ، وكان لنا وضع غير هذا الوضع.

الاسلام هو الذي يربطنا بكم ، ويربطكم بنا ، هذا الاسلام الذي نريد أن نلتقي عليه ، وأن تتولوا قيادته من جديد .

Marfat.com

تعَالوا نحاسِبْ نفوسَنا وَقادتَنَا

سادتي وإخواني ! (*)

إنني أذكر لكم حادثاً من حوادث التاريخ الذي هو الفصل الحاسم ، الذي افتتح به تاريخ الدعوة الإسلامية ، بل أفتتح به تاريخ جديد للانسانية ، وهو الساعة الدقيقة التي وقف فيها رسول الله ﷺ على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته : يا صباحاه !

وكانت هذه الكلمة معروفة عند العرب ، إذا كانت هنالك إغارة سرية ، غارة من جيش كامن بالمرصاد ، وانتبه لها أحد أبناء البلد ، إنه يرتقي جبلا من الجبال ، أو هضبة من الهضاب ، وينادي بأعلى صوته يا صباحاه !

فيفهم الناس ، أن هنالك خطراً على المجتمع ، خطراً على البلد ، فيهرعون اليه ، ويتركون ما هم فيه من أشغال ، ومن تجارات ،

---

* ألقي هذا الحديث في بلد عربي كبير ، في ٢٤ من شعبان سنة ١٣٨٨هـ الموافق لـ ١٧ من نوفمبر ١٩٦٨م ، وقد نقل من الشريط ، وتناوله صاحب الحديث بكثير من التنقيح والتهذيب ، وحذف المكررات والمرادفات ، وتصحيح بعض الأخطاء التاريخية التي وقعت في الكلمة المرتجلة .

Marfat.com

ومن صناعات ، ويقبلون إلى هذا الداعي ، ليستفسروه عن هـذا الخطار الكامن .

فلما ارتقى رسول الله ﷺ جبل الصفا ونادى بأعلى صوته «ياصباحاه» وكان هذا الصوت الحنون أليفاً ، وكان مصدر أكبر ثقـة يتمتع بها إنسان .

لم يكن صوتاً عادياً يصدر عن شفتي رجل عادي ، إنمـــا هو صادر عن شفتي رسول الله ﷺ الذي لقبوه قبل النبوة بالصـادق الأمـــين .

فلما سمعوا هذا الصادق الأمين ، يرفع هذا الصوت ؛ وكان عهدهم بهذا الصوت أنه لا يكون فيه مبالغة أو مجازفة ، وأنـــه لا يكون فيه مجرد إعلان ، وإزعاج وإنذار .

فعرفوا أن هنالك خطراً كبيراً ، فخف الناس اليـه سراعاً ، واجتمع أهل الوادي في سفح الجبل ، ورفعوا رؤوسهم ، وفتحوا عيونهم ، وشخصوا بأبصارهم إلى رسول الله ﷺ ، إلى محمد بن عبدالله القرشي الهاشمي ، ماذا : سيقول لهم

فقال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ، « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » .

وكان العرب على أميتهم ، وبالأصح على جهلهم لصناعة العلم ، قد رزقهم الله الذوق السليم ، والنظر الصائب ، فاستعرضوا الجو ،

Marfat.com

استعرضوا الواقع الذي كانوا فيه ، فرأوا أن رجلاقد ارتقى الجبل ويرى ما وراء الجبل وأمام الجبل ، فله الحق كل الحق في أن يخبر بأي شيء ، لا يراه الذين وقفوا في سفح الجبل ، ولا يتجاوز بصرهم وراء الجبل .

إنما كانوا يحتاجون إلى عقل سليم ، فهذا العقل السليم هداهم ، وقد أرشدهم إلى أن إنذار هذا الرجل الذي قام على قمة الجبل في محله ، وله الحق في أن يخبرهم بشيء لا يرونه بالأبصار ، فصدقوه ، وقالوا : ما جربنا عليك كذباً ، وما وجدناك إلا صادقاً أميناً ، فلما قالوا ذلك ، قال :

« فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

ماذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لهم ؟ إنما قال لهم : إن هذه الحياة التي تعيشونها يا أهل الوادي ، هي أكبر خطر وجناية عليكم ، عدو كامن تحسبون له حساب .

إنني إذا أخبرتكم أن وراء الجبل كتيبة تريد أن تنتهز أول فرصة للهجوم ، وتغير عليكم على غرة ، فأنتم تحسبون له الف حساب وأنتم تسرعون إلى بيوتكم لتحملوا السلاح ، وتأخذوا أهبتكم وتستعدوا لمقاومته .

ولكن مالي إذا قلت لكم : إن هذه الحياة التي تعيشونها ، وإن العقائد التي تدينون بها . وإن منهج الحياة الذي آثرتموه ، وإن هذا الطراز من المدنية ، وهذا الطراز من الأخلاق ، إن هذه

Marfat.com

المثل العليا التي آمنتم بها ، وإن هـه الأصنـــام التي خضعتم لها ، وعكفتم عليها عبادة وتسبيحاً ، وتعظيماً وتقديساً ، إن هذه الحياة هي أكبر خطر عليكم ، هي أكبر تحد لما أنتم فيه من لهو ولعب ومن جهل وسفاهة من هذا الجيش الكامن ، لأن هذه الحيـاة هي مصدر كل خطر .

إن قريشاً بعقولهم القاصرة ، وبتجاربهم المحدودة ، وبعقلهـم الضيـق ، كانوا لا يصدقون بوجود خطر ، إلا في جيش مغـير ، إلا في جيش واقف بالمرصاد ، إلا في غارات قبليـــة قـــد جربوها .

٤

وكان علمهم محدوداً في هذا النطاق ، فنبههم رسول الله ﷺ أن نفس الحياة التي يعيشونها ، هي الخطر الحقيقي ، وهي مصدر كل بلاء ، ومصدر كل شقاء ، ومصدر كل قلـق ، ومصـدر كل إخفاق .

هو المصدر الواسع الذي كان بقاؤه وحده كافيـاً ليكونوا على حذر ، وليكونوا على يقين ، وإيمان بالخطر ، هـذا الوتر الحساس الذي ضرب عليه رسول الله ﷺ ، فما دام هذا الخطر فيهم ، فلا حاجة إلى خطر خارجي .

ولم تزل هذه نقطة ضعف في الفطرة البشرية ، إنها تؤمن بالأخطار من الخارج دائماً ، إنها تؤمن بالأعداء الأجانب ، إنهـا تحسب لهم كل حساب ، ولكنها تغفل عن مصادر الخطر العميقة الأصيلة ،

Marfat.com

الكامنة الدفينة ، في نفوس الشعب ، وفي قـــلوب الشعب، وفي الحياة الاجتماعية ، والاخلاق العامة .

فنبه رسول الله ﷺ ، وقال لهم بلغة بليغة كان يفهمهـا عقلاء قريش وفضلاؤهم ، وكانوا أهل اللغة ، يجب عليكم أن تنتبهـــوا لهذا الخطر الداهم ، لهذا الخطر الدائم ، لهذا الخطر الكامن الدفين في نفوسكم ، لهذا الخطر الذي لا يرى بالابصار . فأنتم في خطر وعلى شفا جرف هار ما دمتم في جاهليتكم ووثنيتكم ، وما دمتم تؤثرون المصلحة الفردية على المصلحة الاجتماعية ، وتؤثرون العاجلة على الآجلة ، وتؤثرون القوي على الضعيف وتنتصرون له .

وما دمتم تعبدون المادة ، وما دمتم تعبدون القوة ، وما دمتم تقدسون الاصنام التي تنحتونهـا بأيديكم أكانت من الحجـارة ، أو كانت من صنع الرجال ، أو كانت من تفكـــير العقول ، أو كانت من وحي الدراسة ، أو كانت من وحي الاطيـــاف أو الخيالات .

ما دام لكم هذا الوضع ، فإنه مصدر كل خطر ، وإن مثلكم كمثل ركاب سفينة يركبونها ، وفي هذه السفينـــة ثقب واسع يدخل منه الماء بقوة وسرعة ، ولكنهم لا يعتنون بهذا الثقب وقد قرأوا في حكايات « سندباد البحري » وفي رحلات « جلفر » عن قرصان البحر الذي حدث عنهم الرحالون في الشرق والغرب ، فهؤلاء يحسبون لهم كل حساب ، ولكنهم لا يعتنون بهذا الثقب

Marfat.com

الواسع في جوف السفينة الذي يفور منه المـــاء ، ويدخل منه بقوة وسرعة .

هذا مثال لمجتمعنا الحاضر أيها الاخوان ! لم يكن هذا المثل الحكيم الذي ضربه رسول الله ﷺ ، واتخذ له طريقة حكيمـة لم يسبق اليها ، لم يكن مثلا محدوداً خاصاً بالمجتمع القرشي ، المجتمع المكي القاصر المحدود الذي نقرأ عنه في التاريخ ، إنمـــا هو مثل حكيم في كل عصر ، ومثل منطبق علينا كل الانطبـاق ، مثل دافق بالحياة ، انه تصوير دقيق لمجتمعنا .

اننا نخاف الاوباء ، ونخاف الامراض ، ونخاف «المكروب» ونحسب له حساباً دقيقاً ، ونبعد ونؤمن بالخيال .

حتى اذا قال أحد : ان هنالك حادت موت بالكوليرا ، فان كل البلد ينتشر فيه الذعر ، ويستولي عليه الخوف ، ويعتقد كل واحد أنه أول فريسة لهذا الوباء ، ولكن هذه الامراض الخلقية ، هذه الاخلاق التي يبغضها الله ورسوله ، عبـــادة المادة وعبادة الشهوات ، وعبادة القوة أينما كانت ، والانحراف مع الهوى ، والانسياق مع الرغبات ، والانغماس في الهوى والملذات ، والنهم بالغناء والطرب ، ووسائل التسلية والترفيه ، والطاعة العميـــاء المطلقة للقيادات والشعارات ، والزعامات والهتافات ، والتعامي عن الحقائق ، وعدم الاعتبار بالتجارب المتكررة ، والاسترسال في الاحلام ، والاسترسال في الاماني ، والتقديس للبشر إلى غير

نهاية ، واعتقاد العصمة فيهم عن الخطأ والضلال، وتقديس الابطال وتقديس الزعماء ، وتقديس القادة السياسيين وغير السياسيين .

هذا وضع أكثر خطراً ، وأكبر جناية ، وأكبر تحدياًلوضعنا الحاضر ، ولمجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه ، من الف عدو ومن الف جيش ، وهذا هو المثل الحكيم الذي ضربه رسول الله ﷺ لكل زمان ومكان ، ونحن نعيش في مثل هذا الوضع .

إننا نتعامى عن الحقائق الراهنة ، ونأبى أن نعتبر بالدروس ، أن نعتبر بالتجارب ، إنه وضع خطر جداً .

إن الله سبحانه وتعالى قال : « **فلولا إذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** »[1]

وهنا موضع الاعجاز « وزين لهم الشيطـــان ما كانوا يعملون » لماذا لم ينتفعوا بهذه التجارب ، ولمـــاذا لم يتلقوا درساً من تلك الحوادث والكوارث التي دهمتهم ؟

لان الشيطان قد وضع لهم فلسفة جديدة ، واخترع لهم أسماء جديدة ، وفتح لهم باباً واسعاً في التأويـــل ، فضاعت العبرة ، وضاعت الذكرى ، وخدروا نفوسهم وعقولهم بأسباب وعلـــل تكوينية وطبيعية ، وبرروا حياتهم الاولى ، ودافعوا عن أخلاقهم وعاداتهم ، إنها معجزة خالدة من المعجزات القرآنية .

---

١ – سورة الأنعام : ٤٣ .

Marfat.com

وأعاد التاريخ نفسه ، وأعادت الطبيعة البشرية المادية منهجها ، فأصبنا بالكارثة الكبرى في خامس حزيران (١٩٦٧م) وكانت نتيجة لمنهج طويل آثرناه في حياتنا الاجتماعية ، ولانحراف بعيد عن جادة الدين والفطرة السليمة ، وكانت نتيجة عوامل كثيرة كانت تشتغل في زمن بعيد .

فوقف قادتنا بين الشعوب العربية ، وبين الاعتبار والانتفاع بهذه النكبة ، فوضعوا لنا فلسفات جديدة ، واخترعوا لنا أسماء جديدة ؛ فقالوا : إنما هي نكسة لا نكبة ، وإنما هو انتصـــار لا اندحار ، وإنما هو فتح مبين لم يسمع بمثله ، وإن كل ما فوجئنابه نتيجة الرجعية الباقية في الشعوب العربية ، وصدق الله العظيم : « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

هذه حالة خطرة أيها الاخوان ! إن التجارب الانسانية ثروة ثمينة يعتز بها الانسان في كل زمان ومكان ، لو أبطلناهذهالتجارب ولو أبطلنا حكم العقل ، وحكم الحواس البشرية ، لو أبطلنا حكم الآذان والعيون ، وقلنا نبصر وننكر ، ونسمع وننكر ، ونتلقى دروساً على دروس ، ثم نرفضها ، هذه حالة خطرة جداً ، هذا نذير من النذر ، معنى ذلك انا فقدنا الصلاحية .

إن الأمة العربية تجتاز الآن مرحلة دقيقة حاسمة في تاريخها ، وهي مرحلة ، لا أقول : مرحلة هزيمة ، ولا أقول : مرحلة نكبة إنني لا أخاف عليكم هذه النكبة ، فالأمم ذات الدعوة ، الأمم

Marfat.com

ذات الرسالة ؛ الأمم ذات التاريخ ، الأمم ذات الضمير الحي ، ذات القلوب النيرة ، ذات القلوب الحية ، ذات القلوب الدافقة بالحياة تمر بهذه المراحل ، وأنتم مررتم بمراحل كثيرة .

زحف الينا الزحف الصليبي ، زحف الينا الزحف التتاري ، الذي كاد يأتي على آخر رمق للمسلمين ، ولكن لم يكن هنالك موضع يأس وتشاؤم ، لأن ضمير المسلم كان حياً ، ولأن عقل المؤمن كان واعياً ، لأنه كان عنده تمييز بين الخير والشر ، كان يميز بين عدو وصديق ، وبين نافع وضار ، وكان المسلم جريئاً ، كان صريحاً ، وكان شجاعاً .

إنني لا أخاف عليكم مثل هذه النكبات ، ولكني أخاف عليكم هذا الضمير الذي قد توقف عمله ، ما عمل الضمير ؟ عمل الضمير الاحتساب ، عمل الضمير المناقشة ، ولو كانت غلطة من أب كريم ، أو سيد عظيم ، إذا مات هذا الضمير ، أو توقف عن العمل إذا توقف عن الانتفاع ، إذا توقف عن الاعتراف بالحقائق، هنالك الخطر الأكبر ، هنالك تموت الانسانية .

يموت إنسان واحد ، ويولد الف إنسان ، هذه سنة الله ، هذه الطبيعة البشرية ، ولكن إذا مات الضمير ، إذا مات الضمير الجماعي ، إذا مات ضمير الأمة ، هنالك الموت الرهيب ، هنالك النكبة التي لا نكبة بعدها ؛ وإذا انقطع هذا الحساب ، وإذا أصبح مكان أخطأت ، أصبت ، ومكان أسأت أحسنت .

Marfat.com

إنكم تعرفون ، أن كل أمة تمر بهذه المراحل إنهـا تنتقل من هزيمة إلى انتصار . ومن انتصار إلى هزيمة ، ومن هزيمة إلى هزيمـة أخرى ، لا ثقة بأمة ، ولا بصلاحيتها للحياة ، إلا إذا مرت بهذه المراحل كلها ، لذلك قدر الله تبارك وتعالى للرسول ولاصحابه بعض الانتكاسات ، فقال : « **ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فـلم تغن عنكم شيئـاً . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** »[1] .

إنها تربية ربانية ، لا فضل للأمم والشعوب ، ولكن المعول على العقائد والرسالات ، ليس المعول على هذه الاجسام ، المعول على القلوب ، المعول على الضمائر .

إذا كان شعب لا يستطيع أن يقول لقائده : أخطأت ، هذا شعب يستعبده كل طاغية ، ويسخره كل جاهل سفيه . هذا الشعب فريسة لكل طغيان ، فريسة لكل استعمار .

لماذا كان الاستعمار بغيضاً أيها السادة ، ألانه استعمر قلوبنا ، واستعمر نفوسنا ، واستعمر أرواحنا ، واستعمر عقولنـا ، فهل الاستعمار بغيض إذا جاء من أجنبي ، وهل الاستعمار حبيب إذا جاء من وطني ؟

لقد أعطاكم الله الميزان لتقيموا القسط في النـاس ، لتكونوا شهداء على الناس :

---

١ – سورة البراءة : ٢٥ .

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » [1] .

أمر الله تعالى بالعدل مع الاعداء ، والاخوان والآباء ، فأنتم إذا فقدتم الميزان ، إذا كان شيء ينسب إلى أجنبي فهو بغيض، فهو قبيح ، أما إذا كان ممن يتصل بنا بالنسب ، من يتصل بنا بالقومية ، ثم يتسلط علينا هذا التسلط الراعن ، فنحن نخضع له كل الخضوع ، ونعطل له العقول والضمائر ، هذا والله هو الخطر الحقيقي .

إن هذه الامة قد ربط بها مصير الامم ، فكيف تكون هذه الامة شهيدة على الامم جميعاً وكيف تكون رقيبة للأمم جميعاً ، وكيف تكون محاسبة للأمم جميعاً ، إذا لم تنصف قادتها، لم تنصف زعماءها ، ولا تميز بين الحق والباطل ، لا تميز بين الناصح والغاش ، وإنما تستسلم هذا الاستسلام الفظيع ، وتذعن هذا الاذعان الشائن وتستكين هذه الاستكانة الذليلة ، وتفقد هذا الضمير الذي منح الدنيا هذه المدنية المشرقة ، منح الدنيا هذه العلوم المزدهرة ، منح الدنيا هذا التاريخ المجيد ، حين كانت الدنيا على وشك الانهيار .

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين

---

١ — سورة المائدة : ٨ .

Marfat.com

قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »[1] .

هذا الضمير يتوقف عن العمل ، هذا والله خطر ، ليس خطراً على العرب وحدهم ، وليس خطراً للمسلمين وحدهم، بل هو خطر على الانسانية كلها .

فانه موضع أمانة الله ، إنه موضع سر الله ، قد أودع سره في هذا الضمير المسلم ، وجعل كل مسلم وصياً على العالم ، وميزان عدل في كل زمان ومكان ، ميزاناً يحكم بدقة ويحكم بأمانة ، ويحكم بصراحة ، لا يفضل إنساناً على إنسان ، ولا يفضل فرداً على فرد ، إنه حكم دقيق عادل ، فاذا فقد هذا الميزان عمله ، إذا فقد الملح ملوحته فمن أين يملح الطعام ؟

يا إخواني ! ليست المصيبة أن الطعام غير مالح ، المصيبة أن الملح فقد ملوحته ، إن المصيبة أن الميزان قد توقف عن العمل وما عاد محايداً ، إنه قد أصبح صديقاً لبعض وعدواً لبعض .

إنني لا أخاف النكبات ، إن الجمرة الايمانية لا تزال كامنة في نفوس المسلمين وفي نفوس العرب ، وأنا اؤمن كل الايمان ، بان هذه الجمرة مستعدة للالتهاب إذا وجدت من يلهبها وينفض عنها الغبار ، غبار المدنية الزائفة ، غبار الاسترسال في الاحلام

---

١ – سورة آل عمران : ١٠٣ .

Marfat.com

والاوهام غبار حب الذات ، غبار كراهية الموت ، غبار الاشفاق من الخطر .

إذا امتدت يد كريمة أمينة ، مؤمنة بالله ورسوله ، ونفضت الغبار عن هذه الجمرة الإيمانية ، فإن هذه الجمرة مستعدة للالتهاب والإلهاب ، إنها مستعدة للاشتعال والإشعال ، فإنني لا أخاف من هذه الجهة ، ولكني أخاف من عدم تلقي الدروس من الحوادث .

إننا نقرأ في تاريخ الرومان ، أنهم كانوا يؤمنون بالالهة ، إله الحرب ، إله البرّ إله البحر ، ولـــكنهم كانوا يغضبون في بعض الأحيان على هـذه الالهة « الخيالية » ويثورون عليها ، إذا خانهم النصر ، ولم تتحقق آمالهم ، وقد حدثنا التاريخ أنه لما غرق أسطول للأمبراطور أغسطس استشاط غضباً ، وحطم تمثال نيبتون إله البحر ، لأن هذه هي الطبيعة الأنسانية .

أما نحن المسلمين ، فمؤمنون موحّدون ، مؤمنون بالله تعالى ، لا يجوز لنا أن نؤمن بقيادة إيماناً كاملاً مطلقاً كإيماننا بالله و كإيماننا بالرسول ، يجب علينا أن نحاسب القادة والزعماء ، يجب علينا أن نحاسب نفوسنا ، وأن نحاسب أوضاعنا الإجتماعية ، وأوضاعنا الخلقية ، وأوضاعنا السياسيه ، أما الطاعة العمياء لفرد أو جماعة فتقودنا إلى متاهة لا رجعة منها ، ولا هدى فيها ، وتدفعنا إلى هوة لا قرار لها ، وعدم محاسبتها ، أو مراجعتها في شيء ، فهي الطاعة التي قال الله عنها :

« واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه

Marfat.com

يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورِد المورود واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود [1] ».

إن الله تعالى أمرنا بالكفر بالطواغيت التي تتسلط على البشر في كل مكان وزمان ، وهنالك أنواع من الطواغيت ، ولكن هـذه الطواغيت إذا تسلطت علينا، فلا يجوز لنا كمسلمين أن نقدسها، وأن نعتقد فيها العصمة ، بل طلب الله منا ، أن نتبرأ منها ونكفر بها، قال ابراهيم :

« إنا بُرءاءُ منكم وبما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبـدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده [2] ».

وقال رسول الله ﷺ مرة : **« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »** فعجب الصحابة رضي الله عنهم لأنهم تربوا تربية دقيقة ، إنهم عرفوا أن الرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ولكنهم كانوا يستعملون عقولهم فيما يقوله ، ويراجعونه فيما لا يفهمونه فقالوا: ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً يارسول الله ؟ ففسر لهم رسول الله ﷺ كلمته ، فقال : إن نصر الظالم أن تكفه عن الظلم ، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وإليكم ما يدل على ذلك :

بعث رسول الله ﷺ سرية ، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ،

---

١ — سورة هود : ٩٧ — ٩٨ — ٩٩

٢ — سورة الممتحنة : ٤

فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال: فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال: فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها . قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم: « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف »[1].

إنني أريد أن أقول لكم مرة ثانية : هذه الحياة التي نعيشها في البلاد العربية ، هذه الحياة اللاهية المترفة ، هذه الحياة المتعامية عن الحقائق ، الحياة التي تستند دائماً إلى الملاهي وتوافه الامور ، هذه الحياة التي قد غلب فيها الهزل على الجد ، اسمحوا لي أن أقول بصراحة : هذه الحياة التي قد غلب فيها الجبن على البطولة ، هذه الحياة التي قد غلب فيها حب المادة - إذا قلت لكم على حب الله ورسوله وعلى حب المال في سبيله فإني لا أكون مبالغاً مجازفاً في القول. هذه الحياة التي إذا رآها انسان من بعيد ، إذا زار انسان بلداً عربياً ، ورأى هذه المهازل ، ورأى هذه الملاهي ، ورأى هذه الاغاني في حالة الطوارىء ، على أثر نكبة نكبت بها هذه الامة استغرب جداً ، واتهم سمعه وبصره ، هل الذي يراه حقيقة أم خيالاً ؟ .

إننا نعيش في حالة الطوارىء ، كان الاحرى بالبلاد العربية ،

---

١ - رواه الجماعة عن علي (رض) (إلا ابن ماجه)

Marfat.com

والعواصم العربية أن تكون كلها في حالة الطواريء ليلا ونهاراً : كله جد ، كله لباب ، كله تقشف ، كله حذر وإشفاق .

لولا هذه العقيدة الكريمة التي نلتقي عليها ، ولولا أن مصيرنا مرتبط بمصيركم ، وبمقدار ذلكم نذل ، وبمقدار شرفكم نتشرف ، إننا نحاسب بما يقع هنا لمـــا كان لي حق في محاسبتكم ، الامم والشعوب تعيش بالمحاسبة ،لولا هذا الحساب الدقيق ، لولا هذا النقاش المخلص ، لولا هذه الغيرة في الشعوب الاوربية ،لضاعت وطويت في سجل التاريخ من زمان ، ولكنها عاشت ، ولا تزال تعيش بفضل هذا الحساب. إنها لا تسمح لاي قائد أن يقدس دائماً، أن يمجد دائماً، أن يتولى الحكم دائماً مهما أخطأ وأساء ، وجنى على أمته وبلاده . هكذا كان المسلمون ، وهكذا كانت قادتهم وأمراؤهم ، وهكـذا كانت جيوشهم وعساكرهم .

وأحكي لكم قصة من تاريخ الفتح الإسلامي في الهنـــد ، ولمؤسس الحكم الإسلامي في هذا القطر : لما زحف شهاب الدين محمد بن سام الغوري [1] على الهند ، قاتله بتهور أملك أجمير قتالاً شديـــداً، وانهزمت عساكر المسلمين هزيمة منكرة ورجعت إلى لاهور ، واعتصمت بها ، وعاتب السلطان الامراء الغورية وأمراء خراسان ، الذين لم يثبتوا في المعركة عتاباً شديـــداً ، وعلق في

---

١ — م سنة ٦٠٢ هـ « مقتبس من كتاب « تاريخ هندوستان » للمؤرخ الهندي ذكاء الله ، الدهلوي الجزء الأول ص ٣٥٧ ، ومن كتاب « نزهة الخواطر » للمرحوم السيد عبد الحي الحسني ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٦

Marfat.com

عنق كل واحد منهم عليق شعير ، وقال : أنتم دواب ، ما أنتم أمراء ! وسار إلى غزنة ـ عاصمة ملكه ـ بعد العدة للكرة ـ بعد الفرة ـ ، وظل لا يهنأ له طعام ولا شراب ، ولا يحلو له نوم ولا راحة ، ثم ركب في جيش عظيم ، ولم يستشر في ذلك أحداً ، ولما سأله أحد الأمراء عن قصده ، تنفس الصعداء ، وقال إنني لم أنم على فراشي منذ لقيت الهزيمة من أمراء الهند ، ثم حسر قباه ، وقال : ترى أنني لم أغير ثيابي منذ ذلك اليوم ، وقل : إنني لم أر وجه هؤلاء الأمراء الذين خذلوني في الميدان ، وأسلموني إلى العدو . وقال يخاطب جيشه : إنه يتحتم علينا نحن المسلمين ، أن نغسل هذا العار الذي لحق الإسلام والمسلمين ، وأن ننفض عنا غبار الهزيمة التي لقيناها في العام الماضي ، فوضعوا أكفهم على السيوف ، وأطرقوا رؤوسهم سمعاً وطاعة ، ثم توجه إلى الهند ، وبعث برسالة إلى بتهورا يدعوه إلى الإسلام والطاعة ، وأخذته العزة بالإسم ، فرفضه في كبرٍ وغضبٍ ، وحمل السلطان عليه حملة شديدة ، وانتصر انتصاراً باهراً ، وتأسست الحكومة الإسلامية في الهند ، التي دامت — في أشكال مختلفة ـ اكثر من سبعة قرون ، وكان ذلك في سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٣ م) .

إذا كانت عجوز تستطيع أن تحاسب عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] ، فلماذا لا يجوز لأي مسلم ، ولأي كاتب ومؤرخ ،

---

١ ـ قال الحافظ أبو يعلى : ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، ما إكثاركم في صداق

Marfat.com

ولأي متألم بهذه الأوضاع أن يحاسب القادة والزعماء؟، وكان كل مسلم يستطيع أن يحاسب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال مرة وهو على منبر الرسول ، اسمعوا وأطيعوا ، فقال أحد الصحابة « لانسمع ولا نطيع » ، قال لماذا ؟ قالوا : لأن عليك بردتين من الغنمة ، وعلى كل واحد منا بردة ، فلماذا هذا الفرق بينا وبينك ؟ فقال: هل هنا عبد الله بن عمر ، فقام ، وقال : إنه كانت له بردة واحدة، فأعطيته بردتي ، فقال الأول : إذن نسمع ونطيع . وهكذا عاشت هذه الأمة ، وقاومت جميع النكبات والكوارث التي مرت في تاريخها ، لأنها كانت أمة واعية ، تقول الحق ، وتحكم بالعدل ، وتحاسب وتناقش ، وهكذا تستطيع هذه الأمة أن تعيش في المستقبل .

أيها الإخوان ! إنني أشكركم من أعماق نفسي ، واطلب منكم عدم المؤاخذة إذا صدرت مني كلمة أساءت إلى أحد من الإخوان، أو جرحت شعوره ، فوالله لم يكن دافعها والحامل عليها ، إلا

النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه والصدقات فيما بينهم اربعمائة درهم ، فما دون ذلك، لو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله وكرامة لم تسبقوهم إليها ،فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على اربعمائة درهم قال ، ثم نزل : فاعترضته امرأة من قريش ، فقالت : يا أمير المؤمنين! نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ،قال : نعم ، فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأي ذلك ؟ فقالت : أما سمعت الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً » الآية قال : فقال : اللهم غفراً ، كل الناس افقه من عمر !

Marfat.com

الإخلاص وبذل النصيحة، والشعور بالمسؤولية المشتركة ، وأنا معكم
كما قال الشاعر العربي :

وهل أنا إلا من غُزَيَّةَ إن غَوَتْ

غَوَيتُ وإن تُرْشَدْ غزيةُ أرشِدِ

Marfat.com

نظامانِ إلهيّانِ للغلبة والإنتصار

قال بعد ما حمد الله ، وصلى وسلم على رسول الله : [1] .

أما بعد ، فيا سادتي وإخواني ! إن موضوعي اليوم « الطريق إلى النصر » موضوع مطروق متداول ، ولو طرح لأي واحد من عامة المسلمين ومن أهل البلد ، فضلا عن المثقفين ، فضلا عن قادة الفكر ، وفضلا عن حملة الأقلام والمؤلفين ، لكان له جولة وصولة في هذا الموضوع ، ولكنه إذا بحث ونوقش في مثل هذا المجلس الموقر الذي يضم هذه المجموعات الطيبة المثقفة ، كانت له روعة ، وقد يثير جوانب من التفكير .

---

١ — كلمة ألقيت في ١٦ — من شعبان سنة ١٣٨٨ هـ في قاعة الدرسة الثانوية بالمدينة المنورة ، بعنوان « الطريق إلى النصر » وكان حفلا تاريخياً مشهوداً ، لم ير مثله في البلاد المقدسة منذ أمد بعيد ، وقد حضره العلماء والأساتذة وشباب المدارس والكليات والجامعة الاسلامية ، والمثقفون ، في عدد كبير ، وكان الحفل تغشاه سحابة من سكون وهدوء شامل ، وتأثر عميق ، وقد سجلت هذه الكلمة المرتجلة ، وهنا نصها منقولا من الشريط ، بعد ما تناولها صاحب الحديث بشيء من التنقيح والتهذيب ، وحذف بعض ما تكرر من العبارات والمعاني التي اقتضاها الجو الخطابي ، والحماس والاندفاع اللذان كانا يملكان الخطيب .

Marfat.com

إن مثلي أيها الاخوة في اختيار هـــذا الموضوع وعرضه على مسامعكم ، ولفت النظر إليه كمثل الحكاية التي حكاها عبد الله بن عمر رضى الله عنه في نفس هذه المدينة والطيبة ورواها البخاري وغيره من ثقات المحدثين ، وعقد عليه الامام البخاري باباً ، فقال: « باب طرح الامام المسألة على الناس ليختبر ما عنـــدهم من العلم ».

يقول عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ مخاطباً للحاضرين من أصحابه رضي الله عنهم : « إن من الشجرة شجرة لايسقط ورقها وأنها مثل المسلم ، حدثوني ماهي ؟ قال (عبد الله بن عمر) فوقع الناس في شجر البوادي . ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا يارسول الله ماهي ؟ قال : هي النخلة»[1] . وكذلك عن أبي بكر رضي الله عنه ، قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، فقال : أتـــدرون أي يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: أليس يوم النحر؟قلنا : بلى .

قال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى .

قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس بالبلد الحرام ؟ قلنا : بلى ، قال : فان دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هـذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : أللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ،

---

١ — رواه البخاري في صحيحه .. « كتاب العلم »

Marfat.com

فرب مبلغ أوعى من سامع ، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[1]

إنني أيها الاخوة ! لاحاول أن أفلسف الحـــديث ، ولا أن أتعمق فيه كثيراً ، ولا تنتظروا مني - وأنا أسألـــكم مخلصاً وأناشدكم بالله ــ خطابة رائعة ، فالموضوع أدق وأروع ، من أن يكون مظاهرة للخطابة ، أو مناورة لكلام يملأ الاسماع ويخلع القلوب : ما هو الطريق إلى النصر ؟ هذا سؤال أريـــد أن أبحث فيه ، وألفت نظركم إلى بعض النواحي .

إن هنالك نظامين أيها الاخوة : نظاماً طبيعياً خلقه الله تبارك وتعالى ، واختاره لهـــذا الكون ، واتخذه سنة له ، وهو : أن الكثرة تغلب القلة ، وأن الغنى يغلب الفقر ، وأن الأسبـــاب الكثيرة تغلب الأسباب القليلة ، وأن القوة تغلب الضعف ، وأن التنظيم والوحدة والانسجام ، والعزم ، وقوة الارادة والصرامـة والثبات ، هذه صفات وأخلاق تغلب دائماً أضدادها . وكلنا قـــد جربنا هذا النظام في حياتنا الطبيعية اليومية .

إن الله سبحانه وتعالى قـد أودع في الاشياء طبائعها ، وهي لا تفارقها على مر القرون والأعصار . فأودع في النار طبيعـــة الاحراق ، فالنار تحرق دائماً . وأودع في الماء طبيعته وأودع في الطين طبيعته ، هذه طبائع الأشياء التي لاتفارقها ، وهـذا النظام

---

١ ــ رواه البخاري في صحيحه ..

Marfat.com

الطبيعي قانون عادل محايد لايراعي أحداً،ولا يفضل بشراً على بشر، ولا جماعة على جماعة حتى أن هذا القانون لا يميز بين الكافر والمؤمن وبين التقي والفاجر، وبين الصالح والفاسد ، وبين المصلح والمفسد، فالنار تحرق كل ما امتدت إليه ، لا تراعي مصلحة ولا تخاف عاقبة .

هذا هو الميزان العادل المحايد الذي يزن الأشياء وزناً دقيقاً ولا يداهن ولا يحابي ولا يفرق ولا يميز .

هذا هو القانون الذي جربه الانسان في رحلته الطويلة، وفي تجاربه المتصلة منذ خلق إلى يوم الناس هذا ، وتاريخ الفتوح الانسانية والمغامرات البشرية ، وتاريخ الانتصارات ، والحكومات زاخر بالشواهد والأمثلة ، إنه تاريخ متصل متكرر ، طويل مستمر ، لا تجدون فيه الاستثناء .

فحكومات تتغلب على حكومات ، وقوى تصرع قوى ، وطاقات تهدم طاقات ، وعدد يغلب عدداً، هذا كله خاضع للقانون الطبيعي الذي خلقه الله تعالى ، ولا يحتاج هذا القانون إلى بحث عميق ، أو استعراض دقيق ، ولا إلى تعمق ، ولا إلى فلسفة ، والكتب السماوية والنبوءات لم تبحث في هذا الموضوع ، فهو شيء طبيعي ، معلوم مجرب ، معقول يتناول كل واحد .

هذا القانون هو قانون قاهر نافذ ، قانون حر مطلق . قانون الأرض لا يقهره شيء ، فاذا ترك الناس وهذا القانون تحكم فيهم تحكما مطلقاً ، ولم يعق سيره شيء .

Marfat.com

ولكن هنالك نظاماً آخر ، هو النظام الذي بحث عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،وبحثت عنه الكتب السماوية وشرحته وحثت عليه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق غايات أفضل وأسمى ، وأحق بالاهتمام والاحترام من هذه الغايات التافهة — إذا صح أن نسميها تافهة .

فالنار تحرق ، والماء يغرق ، والسم يقتل ، والترياق ينجع ، والطبيب يعالج ، والمرض يرهق ويضعف ، والدواء يشفي ويريح، هذه كلها غايات محترمة غايات معقولة غايات يسير عليها هذا الكون ولكن هناك غايات أفضل من هذه الغايات ، وأحق بالاهتمام ، وهي غاية هذا الخلق ، وهداية البشرية، ومعرفة الله تبارك وتعالى، وإقامة العدل في العالم ، وإسعاد البشرية، ومنح الحقوق لأصحابها، والحياة السعيدة الهنيئة الفاضلة العادلة ، والمجتمع الصالح المثالي ، التقي الفاضل الذي تحترم فيه الانسانية ، ويخشى فيه الله تبارك تعالى .

الذي تؤدى فيه الحقوق إلى أصحابها ، والأمانات إلى أهلها ، ويجد الناس فيه طريقاً ميسوراً للوصول إلى الله تبارك وتعالى ، ولتنمية قواهم ومواهبهم لمعرفة الله تبارك وتعالى ، والوصول إلى الكمال المطلوب ، والوصول إلى الغاية السامية النهائية التي خلق هذا الكون لاجلها،هذه هي الغايات التي أنزل الله الكتب السماوية وبعث لها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه جميعاً ، وهذه هي الغايات التي يجب أن تخضع لها تلك الغايات الطبيعية ، وأن تغير

Marfat.com

لها هذه الغايات طريقها ، وتترك الطريق للغايات السامية التي أنزل الله لها كتبه المعجزة وأرسل لها الرسالات الصادقة المعصومة .

فاذا تصادمت الغايتان : الغاية الطبيعية ، والغاية الشرعية ، الخلقية العقلية الدينية ، الأساسية الرئيسية . غاية الخلق،وغاية هذا الكون ، وغاية النوع البشري ، رجحت كفت الغاية الاخيرة ، لذلك لما ألقي ابراهيم في النار ، كانت هناك سنة الله التي نفذت فى خلقه ، وسارت السير الطبيعي ، وانطلقت من غير تقييد ، فكانت النار تحرق منذ آلاف من السنين ، ما سجلت تجربة واحـــدة في التاريخ البشري ـ على أمانته ودقته في النقل ـ أن النار قد كفت وأضربت عن أداء واجبها احتراماً لملك أو عالم ، لانها مأمورة ، ولكن لما اصطـــدمت الغاية الطبيعية : طبيعة النار ، مع طبيعة الخلق التي خلق الله لاجلها الكون ، بما فيه النار والماء ، وبما فيه الاجرام الفلكية والظواهر الكونية ، والاشياء الارضية ، وجميع المواد الغذائية ...

لما اصطـــدمت طبيعة النار ، مع طبيعة الهداية « الغاية التي خلق الله لاجلها الكون » أمرت النار بالكف عن الاحراق ، وسلبت من النار طبيعتها . . . طبيعتها العريقة في القـدم ، وقيل لها ـ بحيث سمعت ـ ولم يسمع نمرود ، ولا أحد من الخلق : إياكِ إياكِ أن تحرقي إبراهيم،إنني أنا الذي أودعت فيك طبيعة الاحراق، ولكن الغاية التي خلقت لاجلها إبراهيم ، وأكرمته بالرسالة ،وبعثته إلى هذا الخلق ، وأمرته بتبليغ هذه الرسالة ، هي الغاية التى يجب

Marfat.com

إن تخضع لها طبيعتك ألف مرة ، فإياك أن تنسى ثياب ابراهيم فضلا عن قلبه المؤمن السليم ، الذي برأه الله لامانة النبوءة ، وهيأه لها فقال :

« ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قبل وكنا به عالمين » [1]

فخضعت ودانت وانقهرت ، وتواضعت هذه الطبيعة النارية للطبيعة الدينية ، للطبيعة التي هي الغاية التي لولاها لكان هذا الكون عبثاً ، ولكان هذا الكون لفظاً بلا معنى ، فدانت وأطاعت النار أمر الله تبارك وتعالى ، وتوقفت عن إحراق إبراهيم ، وكانت عليه برداً وسلاماً ، :

« قلنا ياناار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » [2]

بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والنسبة بعيدة بينهم وبين أممهم التي بعثوا فيها ، كما تعلمون جميعاً ، ولستم في حاجة لاستعراض قصة بعد قصة ، وهذا القرآن مملوء بهذه الشواهد والدلائل . فلما أرسل نوح قال له قومه : **« قالوا أنؤمن لك وأتبعك الارذلون »** [3]

وقالوا له : **« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »** [4] .

ولما بعث شعيب عليه الصلاة والسلام ، قال له قومه :

---

١ ـ سورة الانبياء : ٥١

٢ ـ سورة الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠

٣ ـ سورة الشعراء : ١١١

٤ ـ سورة هود : ٢٧

«قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولو لا رهطك لرجمناك وماأنت علينا بعزيز»[1] .

وهذا موسى ، سيدنا موسى من أولي العزم من الرسل ، ماذا يقول القرآن عنه ، كيف كانت النسبة بينه وبين الامة التي بعث فيها ، وبين فرعون وجنوده وبين موسى وأصحابه ، قرأوا قوله تعالى : **« ونادى فرعون في قومه ، قال : يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين »**[2]

وتعرفون أن الرسول ﷺ كان مستضعفاً في قومه ، وكان أتباعه مستضعفين مهددين . يقول الله تبارك وتعالى :

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس »[3] وقد أقصاه قومه من مكة إلى هذه المدينة المنورة ،التي نجتمع فيها الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، قد قهر القانون الطبيعي لهذه الغاية الفاضلة ، التي تتوقف عليها سعادة البشرية ، فلو سمح للأسباب أن تعمل عملها ، وأن تسير

---

١ — سورة هود : ٩١
٢ — سورة الزخرف : ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤
٣ — سورة الأنفال : ٢٦

سيرها الطبيعي من غير تقييد ، لقضي على دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا بتلعتها هذه الأجواء القاسية والبيئات الضارية .

ولكن الله سبحانه وتعالى كذلك أودع في الأخلاق والصفات طبائعها . وإنـه أودع فيها قوى وطاقات لا تقل عن طاقات هذه الأشياء الطبيعية . . فالصدق له طبيعة وله قانون ، والأمانة لهـا طبيعة ولها قانون، وتقوى الله لها طبيعة وقانون، وإن الصفات الفاضلة الكريمة ، وإن الاخلاق العالية النبيلة ، وإن خشية الله، إن احترام الانسانية ، إن العدل والمساواة، إن المواساة والبر ، إن الاحسان، إن الانصاف من النفس ، إن الايثار والفـداء ، إن إيثار الآخرة على الدنيا ، هذه كلها أخلاق وسجايا ، وعادات وأعمال ، أودع الله فيها من الطاقات والقوى الجبارة ، ومن الاسرار ، والروحانية ، ومن قوة التسخير ، وقوة الفوز والنصر مالم يودع ، وهو القـادر العليم ، في هذه الاشياء الطبيعية التي قـــد جربنا طاقاتها وتأثيرها وخواصها وطبائعها .

إن الله سبحانه وتعالى لما بعث الرسل وأكرمهم بالرسالة وأنزل معهم الكتاب والميزان ؛ ودعوا إلى الايمان بعقائـــد ، والتخلق بأخلاق ، والأتصاف بصفات ، والتحلي بمحاسن ، وعدهم بالنصر على هذه العقائد ، وعلى هذه الاخلاق . وعدهم بالنصر على هذه الدعوة التي يقومون بها ، وقال لهم : إن قوتكم ، وإن سر انتصاركم في هذه الدعوة ، وإن دعوتكم هي جندنا « إنهم لهم المنصورون ،

Marfat.com

وإن جندنا لهم الغالبون»[1] **«إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد »**[2] وقال الله تعالى: **«كتب الله لاغلبن أنا ورسلي »**[3]. إن الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا فاقدي الرشـــد ــ أعاذهم الله عن ذلك ــ إنهم كانوا على أكبر جانب من العقل السليم ، على أكبر جانب من الذكاء ، ومن معرفة طبائع الاشياء ، ومن قوة المقارنة بين الاشياء ، ومن الحكم الصحيح الدقيق على الاشياء ، إنهم لم يكونوا مخدوعين ولا مخبولين ، إنهم كانوا يعرفون أنهم إذا ضربوا الحديد بالحديد ، والعدد بالعدد ، والقوة بالقوة ، والجند بالجند ، إذا تقدموا إلى المعركة معتمدين على قوتهم المادية ، معتمدين على العدد والعدد ، والميرة والمدد ، معتمدين على سواعدهم وإن كانت قوية ، معتمدين على أصحابهم ، وإن كانوا إبطالا شجعاناً لاشك في ذلك، فانهم يخسرون المعركة ، إنهم كانوا يعرفون أن هناك شقة شاسعة بينهم وبين أعدائهم ، هذا مما لا يخفى على ذوي البصر فضلا عن ذوي البصيرة ، وهم أهـــل بصر وبصيرة فاعتمدوا على نصر الله تبارك وتعالى.

ألا تـــذكرون قصة فرعون وموسى ؟ لما أمر موسى بأن يسري بقومه ، وأن يجتاز بهم إلى جزيرة سيناء، سيناء التي تثير في قلوبنا الاحزان ، وتدمع العيون ، سيناء التي فقدناها ، فقدناها

---

١ ــ سورة الصافات : ١٧٢ ــ ١٧٣

٢ ــ سورة المؤمن ٥١

٣ ــ سورة المجادلة ٢١

Marfat.com

بفقدنا للايمان . لما أمر موسى بأن يعبر مع قومه البحر الاحمر ، فلما وقف على شاطيء البحر حانت من بني إسرائيل التفاتة ، والشك دائماً يساور نفوسهم ، والقلق يشغل قلوبهم ، فهم كثيرو التلفت ، شديدو الاشفاق ، فلما رأوا إلى البحر وهو هائج مائج ، ورأوا إلى العدو من خلفهم وهو ثائر موتور ، قالوا يا موسى : أهذا جئت بنا إلى هنا ؟ «**قال أصحاب موسى إنا لمدركون**» [1] وقد صدقوا في ضوء التجربة والواقع ، فانهم إذا خاضوا البحر فراراً من فرعون وجنوده ، فان مصيرهم معلوم محتوم ، وكل من اقتحم البحر من غير سفينة يركبها ، أو طود يأوي إليه غرق وتلف ، والبحر لايميز بين ظالم ومظلوم ، وحاكم ومحكوم ، ولكن موسى كان مأموراً بذلك ، وكان على بينة من أمره ، وكان واثقاً بوعد الله ، وكان يعرف بنور النبوة : أن الغاية التي بعث لاجلها ، والرسالة التي أكرم بها ، أكرم عند الله من غاية البحر التي خلق لها ، والمهمة التي نيطت به ، فقال في ثقة واعتماد : « **قال كلا إن معي ربي سيهدين** » [2] . هل يستطيع إنسان يعتمد على الطبيعة المحايدة ، الطبيعية القاسية ، الطبيعة المطلقة ، التي لا تراعي الحق والباطل ولا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، ولا تميز بين الظالم والمظلوم ، هل كان في استطاعة بشر أن يقول هذه الكلمة المؤمنة النبوية ،

---

١ — سورة الشعراء : ٦١

٢ — » » ٦٢

Marfat.com

التي لا يزال لها رنين في الآذان ذو دوي في التاريخ ، ما قالها انسان قط قبل موسى ، وهكذا كان :

«فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه اجمعين ثم أغرقنا الآخرين » (١)

عرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم لا يجوز لهم بحكم العقل والتجربة ، وبحكم الحواس الظاهرة أن يعتمدوا على عددهم وعلى طاقاتهم ، وعلى عددهم وعلى تنظيمهم ، وعلى علو نسبهم ، وكانوا في ذؤابة قومهم ، ومن أفضل خلق الله ، ولكن كانوا يعرفون أن الأنساب لا تنفع ، وكانوا يعرفون أن النسبة بعيدة بعداً لا يتصور بينهم وبين منافسيهم وأعدائهم ، فاعتمدوا على الله وعلى الايمان ، اعتمدوا على الدعـــوة ، وعلى تلك الأخلاق الفاضلة التي تجرد عنها أعـــداؤهم ، تجرداً شائناً فاضحاً ، وتحلى بها أنصارهم وأصحابهم تحلياً رائعاً معجزاً ، وتقدموا إلى المعركة الفاضلة ، وهم متوكلون على الله للنصر ، يـــدعون الله للفتح المبين ، يدعون الله ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

استحضروا في أذهانكم أيها الاخوان معركة بدر ، وما ساحة بـدر منكم ببعيدة ، وما يوم بدر في تاريخكم بمجهول ، أذكروا يوم خرج رسول الله ﷺ بهذه القلة القليلة من المهاجرين والأنصار

---

١ - ايضاً : ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦

Marfat.com

ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فلما قاموا مصطفين أمام العـدو الثائر الموتور ، القوي الشاكي السلاح ، الذي قد تملكه الغضب والحقـد ، وهو يفوقهم مراراً عديدة في العدد والسلاح ، نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، ونظر إلى أعـدائه ، وهو ، من هو ؟ في سلامة عقله وفي حصافة فكره ، وفي ألمعيته وفي فراسته ، وفي تجربته ! رأى أنـــه إذا ترك المسلمون لحظهم ، وإذا أطلق فيهم قانون الطبيعة ، وسمح لهذا القانون أن يعمل عمله في هذين الجيشين المتنافسين ، وفي هـذين المعسكرين المتقابلين ، عرف ماهي النتيجة ، إنها لم تكن تحتاج إلى ذكاء باهر ، ولا تحتاج إلى ألمعية فائقـــة ، إن قريشاً جاءت بجدها وحديدها ، إنها جاءت وهي ثائرة موتورة تعض البنان حسرة وندامة ، على تنصل هؤلآء إلى هذه الناحية البعيدة ، عرف رسول الله ﷺ النتيجة ، عرف أنه إذا أطلق فيه القانون الطبيعي ، وإذا استطاع هذا القانون أن يشق طريقه إلى الأمام ، فلا أمـل في انتصار المسلمين ، لا أمـــل حتى في رجوعهم إلى المدينة سالمين .

ماذا فعـل رسول الله ﷺ ؟ استحضروا في أذهانـكم . قام يعبد ربه ويـــدعو ، عرف أن النصر من الله ، وعرف أن الذي خلق القانون يستطيع أن يوقف القانون ، والذي وهب يستطيع أن يسترد ، إنه لما خلق هـــذه الطاقات لم يفلت منه الزمام ، كما يعتقد كثير من الجهلاء ، بنى له أصحابه عريشاً ، وقام فيه يدعو ربه ويمرغ جبينه ، ويعفر وجهه في التراب ، ويعرف أن القضاء

ينزل من السماء ، لا ينبع من الارض ، الحكم لله ، والقوة لله ، والنصر بيد الله . قام يدعو ربه ويبتهل ويتضرع ، حتى رق له قلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأشفق عليه ، وقال : حسبك يا رسول الله .

إن بدراً معركة فاصلة معلومة في التاريخ ، لا نزال نعيش في ظلها ، ونأكل من رفدها ، إننا كلنا ، وهذه الحكومات والشعوب الاسلامية عيال على بدر ، وبدر عيال على الدعوة التي دعا بها رسول الله ﷺ ، والكلمة الخالدة التي قالها . رأى أن النسبة بعيدة بين الجيشين في العدد والعدد ، كفتان متفاوتتان ، كفة قد ثقلت حتى التصقت بالأرض ، هذه كفة قريش ، وكفة خفت حتى أرتفعت إلى الفضاء ، وهذه كفة المسلمين . ماذا تفعلون أنتم إذا رأيتم كفتين متفاوتتين وأردتم أن ترجحوا كفة على الأخرى ؟ تضعون سنجة ثقيلة في الكفة الطائشة ، فترجح هذه الكفة ، وتطيش الكفة الثانية .

وضع رسول الله ﷺ هذه السنجة في كفة المسلمين ، ما هي السنجة أيها الاخوان ؟ أتركم تسبحون في خيالكم ، أسمح لكم أن تفكروا في ذلك قليلا ، قال — وجبهته على الارض — الكلمة التي كانت سبباً في الحقيقة لبقاء هذه القلة القليلة من المسلمين ، ولبقاء هذه الامة ، قال « **أللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** » وصدقه الله تعالى في ذلك ، وانتصرت هذه الجماعة كما تعلمون جميعاً ، وكما يعرف التاريخ ، وكما نرى آثاره الاسلامية حية باقية . إن هذه

Marfat.com

الكلمة تعني أن مصير الدعوة مربوط بهـــذه الجماعـة ، أن مصير سعادة البشرية ، والفلاح الانساني مرتبطان بهذه الجماعة ، وأنـــه لا بقاء للأخلاق الفاضلة ، لا بقاء للعدل ، لا بقاء لاحترام الانسانية بغيرهم ، فاذا شئت يا رب أن تضيع هذه المعاني كلها ، وأن تتلف هذه الثروة كلها ، وأن تحبط جهود المصلحين ، والأنبياء المرسلين كلها ويبقى الانسان ولا تبقى الانسانية ، يبقى الجسم ولا تبقى الروح ، فافعل ماشئت ! .

فلما نصر الله المسلمين في معركة بدر ، وكان الفتح المبين ،عرف أن رسول الله ﷺ كان صادقاً في القول ، وأن قوله : إن مصير الدعوة مرتبط بنواصي هـــذه الجماعة القليلة ، كانت كلمة حق صدقتها الملائكة، وشهد بها التاريخ ، وصدقها الانسان في كل زمان ومكان ،وانتصر المسلمون رغم قلتهم وذلتهم ،وانهزم العدو رغم قوته وكثرته ، وصـدق الله العظيم ، « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** »[1] .

وأذكركم بحادثـة ثانية ، ولست من أصحـــاب القصص والحكايات ، ولكني أذكركم بهذه القصة، لان فيها رسالة ، لأن فيها معنى جديداً ، يجب أن يكون ماثلا أمام عيوننا ، وحاضراً في أذهاننا : لما تقدم سعيد بن أبي وقاص لفتح المدائن ، لعلكم قرأتم في التاريخ ، أن دجلة كانت تزبد ، وكانت في المـــد ،

---

١ – سورة آل عمران : ١٢٣

Marfat.com

وكان الفرس قد كسروا الجسور والقناطر ، وأبعدوا السفن والقوارب ، ووقف سعد على شاطىء دجلة وقفة قصيرة،واستعرض الواقع الحاضر . استعرض الوضع الاستراتيجي ، كما يقول الكتاب العصريون ، وقال لأصحابه : بماذا تشيرون علي ؟ هـــل نرجع أو نقتحم دجلة ؟ .

كان المسلمون واثقين بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقهم لغاية ، وأن الله قد ربط مصير الانسانية بهم،وأن الله رؤوف بالانسانية، وأن الله لم يخلق الانسان سدى ، ولم يخلق العالم عبثاً : « **أفحسبتم أنمـــا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون** »[1] كان المسلمون واثقين بهذا المعنى ، فعرفوا أنهم هؤلاء الذين يمثـــلون الإسلام وهؤلآء الذين يحملون القبس الاسلامي،ومشعل الدعوة الاسلامية، إن هـــذه الجماعة نواة الأمة الوحيدة التي أخرجت للناس ، وبذورها الطيبة، أما دجلة فهو نهر يوجـد مثله آلاف من الأنهار، فكيف يسمح لدجلة بأن تغرق هـذا الجيش الذي ليس له غرض مادي ؟ لم يخرج من جزيرة العرب ليبدل عرشاً بعرش ، وحكما بحكم، وملوكا بملوك،لينتزع السيادة من الفرس ويقدمها إلى العرب، وليأخـذ التاج من رأس كسرى ويضعه على رأس عمر رضي الله عنه،هذاحرام على المسلمين. خرجوا كما قال قائلهم:اللهابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام .

---

١ — سورة المؤمنون : ١١٥

Marfat.com

فلما استعرض سعد « الوضع الاستراتيجي» عرف أنه لا حيلة له إلا الاعتماد على الله ، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن يبقى هذا الجيش يؤدي رسالته ، وينشر دينه ، وأنه يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، فان الله سبحانه وتعالى سيقهر دجلة على أن تفتح لهم الطريق .

استشار سعد سلمان ، فقال : « **إن الاسلام جديد** » . تعجبني هذه الكلمة وتثير في قلبي ، وفي تفكيري معاني وأحاسيس عميقة جداً .

يتجلى في جوابه ذكاء المسلم ، لا أقول : الذكاء العام ، إن ذكاء المؤمن قد مثل خير تمثيل بهذه الكلمة ، التي نطق بها سلمان ، قال : « إن الاسلام جديد ، والله لقد ذللت لهم البحور ، كما ذلل لهم البر « **وليخرجن أفواجاً كما دخلوا أفواجاً** » فقول سلمان رضي الله عنه : « إن الاسلام جديد » معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يظهره على الدين كله ، إن الاسلام لم يؤد مهمته بعد ، أمامه مجال واسع ، أمامه أمم وشعوب بكر ، أمامه بلاد شاسعة ، أمامه دنيا عريضة ، إن هذا العالم كله ينتظر الدعوة التي يحملونها ، ينتظر تلك الاخلاق الفاضلة التي يتحلون بها، ينتظر جيش الانقاذ، فقال : إن عقلي المؤمن لا يصدق أنا سنغرق وأن دجلة ستلتهمنا التهاماً . إن الله سبحانه وتعالى يقهرها ويأمرها بأن تفتح لنا الطريق ، وهكذا كان .

Marfat.com

إخواني ! هذان نظامان إلهيان ، نظام طبيعي : غلبة الكثرة على القلة ، غلبة القوة على الضعف ، غلبـــة الوحدة على التشتت والفوضى ، غلبة التنظيم على عدم التنظيم ، غلبة قوة الارادة على ضعف الارادة ، غلبة الاختراع والعلم على الجهل والكسل .

هذا نظام قديم خلقه الله تبارك وتعالى ، وحكمه في مجـال واسع من هذه الدنيا العريضة ، ومن هـــذه الانسانية الواسعة ، ولكن هناك نظاماً آخر كما قلت لكم ، هو نظام الايمان والعقيدة والصفات والاخلاق ، والدعوة والرسالة ، وهذا هو السلاح الذي قاتل به المسلمون ، فانتصروا به ، هذا السلاح الذي خرجوا به من جزيرة العرب ، ثيابهم مرقعة ، ونعالهم مخصوفة ، وجفانهم بالية ، وخيلهم متقطة الركاب ، الناس يستخفون بهم ويسخرون منهم ، ويقولون : هؤلاء إنما أخرجهم من جزيرتهم الجـــوع والعري ، أطعموهم واكسوهم يرجعوا إلى بلادهم .

هذان نظامان إلهيان ، ولكن إذا تجرد فرد أو جمـاعة من هذين النظامين ، وثاروا عليهما ، فلا خضوع للنظام الطبيعي ، ولا احترام له . لا جد ، لا عزم ، لا إرادة ، لا وحدة ، لا انسجام ، لا عزيمة ، وكذلك لا خضوع للنظام الشرعي والخلقي .

فلا عقيدة ولا خلق ، ولا صـــدق ولا إخلاص ، ولا تألم للبشرية ، ولا شفقة على الضعيف ، ولا عطف على اليتيم ، ولا عدل للجميع ، إنما هي شهوات ونزعات ، إنما هو الفخر بالقومية

Marfat.com

وكبرياء ، إنما هو كلام فارغ وهدير كهدير الابل ، فهل يستحق هذا البلد أو الجيش النصر ؟

إن الله سبحانه وتعالى ، ليس بينه وبين بشر نسب ، إنه أنب بني إسرائيل على هذا الغرور وقال : « **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق** » .[1]

لا يفضل إنساناً على إنسان ، ولا فرداً على فرد ، ولا أمة على أمة بمجرد نسب وقومية ، وبمجرد عنصر وسلالة ، إنما يفضل إنساناً على إنسان بالتقوى ، « **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »[2] .

إنما يفضل بلالا الحبشي على أبي جهل القرشي .

فلما برزنا إلى هذه المعركة ، ولا عندنا هذا النظام الطبيعي ، الذي يقضي باليقظة ، يقضي بالوعي ، يقضي بالوحدة ، يقضي بالانسجام ، يقضي بالإيثار ، يقضي بروح التضحية والفداء ، يقضي بالبطولة والشجاعة ، يقضي بالاستهانة بزخارف الدنيا ، يقضي بالتقشف والجلادة ، لا عندنا هذا القانون ، ولا عندنا ذلك النظام المقدس . النظام الذي ضمن الله له بالنصر ، فقال : « **وإن جندنا لهم الغالبون** »[3] إذا قال : إن جندنا غالبون ، لكفى ،

---

١ — سورة المائدة : ١٨ .
٢ — سورة الحجرات : ١٣ .
٣ — سورة الصافات : ١٧٢ .

Marfat.com

وإذا قال : إن جندنا لغالبون لكفى ، ولكنه قال : « **إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون** »[1] « **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد** »[2].

فلما خرجنا إلى الميدان ، واعتمدنا على الكلام الفـــارغ ، اعتمدنا على الدعايات ، وجاهدنا في غير عدو ، وعكفنا على الملاهي والملذات ، مثل الامم التي ضرب الله بها المثل في القرآن ، أي مصير كنا ننتظره أيها الاخوان ؟ بالله قولوا لي ، إذا أعطيتكم القلم ، وكان بيدكم القضاء ، أحلف بالله في هذه المدينة وأعوذ بالله من أن أكذب في أي بقعة من بقاع الأرض ، فكيف أكذب في جوار رسول الله ﷺ ، وفي رحاب مسجده . أنا أعطيكم القلم ، وأعطيكم القرطاس ، قولوا : إذا كان هذا وضعنا الذي عرفنـــاه جميعاً ، عرفناه عن طريق الاذاعات ، وعرفناه عن طريق الصحف استعرضوا فقط الصحف والمجلات التي كانت تصدر أيام الحرب ، وقبل النكبة بقليل ، هل هذه الأخلاق ، وهل هـــذا النمط من الحياة يرضي الله ورسوله ؟ هل أغاني أم كلثوم ترضي الله ورسوله وتستنزل النصر ؟ وهل هذه السهرات الخليعة التي كان يحياها إخواننا في هذا البلد ، الذي وقعت على أكتافه أكبر مسؤولية للدفاع عن المقدسات الاسلامية ، الانسان الذي يخشى الله ، ويحكم بالعدل، ماذا كان يقرر على هذه الكتيبة؟.

---

١ — أيضاً : ١٧٢ — ١٧٣ .

٢ — سورة المؤمن : ٥١ .

Marfat.com

كان واجباً أن يعيش المسلمون جميعـــاً في « حالة طواريء » في حالة استعداد دائم ، يحرمون عليهم حتى اللذات التي أباحها الله تبارك وتعالى وقد فعل ذلك الجيش الموفق المنتصر دائمـــاً في التاريخ .

لما زحف بابر [1] مؤسس الدولة المغولية التي عاشت في الهنـد مدة ثلاثة قرون ونصف ، لما نزل في الميدان ومعه عشرون الفاًمن المقاتلين ، وقد قاد عدوه « رانا سانجا » جيشاً كثيفاً فيه مائتا الف مقاتل ، هل تعرفون ماذا فعل ؟ كان مغرماً بالخمر لا يكاد يصبر عنها ، معروف عنه في التاريخ ، أنه كان مدمناً للخمر ، وقف في ساحة القتال ، وتاب إلى الله ، وقال : يا رب إني أحرم على نفسي الخمر فلا أقربهـــا ، وأقلع عن المحرمات والمنكرات [2] ثم خاض الحرب وقاتل العدو ، فانتصر انتصاراً باهراً ، واستطـاع أن

---

١ — هو ظهير الدين محمد بابر التيموري ٨٨٨هـ — ٩٣٩هـ .

٢ — يقول المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجابوري المعروف « بفرشته » في تاريخه : إن « رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مائتي الف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه ، وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاط محمد شريف ، بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال ، وقال : إذن ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقـــاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية وقاوم رانا سانجا بعشرين الف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ . « تاريخ فرشته »

Marfat.com

يؤسس هذه الدولة العظيمة التي لا تزال آثارها المعمارية والإجتماعية زاهرة خالدة ، وقامت الحكومـــة الإسلاميـــة التي بقيت إلى عهد قريب .

هكذا كانت الجيوش الجادة ، هكذا كان الجـــادون ، أما الهازلون ، فحكايتهم معروفة ، وأنتم أعرف بها مني ، ودائماً ينهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد ، هل هذه مسرحيـــة من مسرحيات الف ليلة وليلة ؟ تقوم فرقة تمثيل فتمثل حكاية ، فهذا ملك وذاك وزير ، وهذا قائد وذاك جندي ، هزل ومرح ، إذا جاء الجيش الحقيقي الذي يحمل السلاح ، الذي قد قرر الموت ، وجازف بالحياة ، فر الجيش الهازل ، وتقوضت المسرحيـــة ، المسرحيات لها مجال خاص ، لها مجال الهدوء والأمن ، مجال التسلية واللهو ، لماذا لا نستحق هذه النكبة ؟ والله إذا آمنا بأن الله من صفاته العدل ، وقد آمنا بذلك وآمنتم جميعاً ، فانا كنا نستحق هذا ! ، وإذا كان غير هذا ، فإن هذا يثير الدهشة والاستغراب في نفوسنا ، أينصر الله سبحانه وتعالى المسلمين الهازلين اللاعبـــين ، أعداء إخوانهم وإخوان أعدائهم ، قال الله تبارك وتعالى : **« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »** [1] ونحن رحماء بالأعداء ، أشداء بيننا .

وهذا اليمن المنكوب الشقي ، ما ذنبه ؟ لماذا كان مظهراً

---

١ — سورة الفتح ٢٩ .

لهذه البطولة والغرام بالحرب ، ولماذا لم توجه هـــذه البطولة إلى العدو الحقيقي :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ...

كيف إذا سأل الله تعالى عن هذه الأمة المنكوبة ، فقـال : « بأي ذنب قتلت » ؟ يقول القرآن : « **وإذا الموءودةسئلت بأي ذنب قتلت** »[1] موؤدة واحدة قد وئدت فى الجاهلية الأولى ،لا يتركها الله تبارك وتعالى من غير عدل ورحمة ، يسألها أمام الناس جميعاً ، ويقول « بأي ذنب قتلت » ؟ فهل لا تسأل أمة بأسرهـا عن ذنبها ، ألا يسأل اليمن الذي قال رسول الله ﷺ عنـــه : « **أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً ، الايمان يمان ،والفقه يمان ، والحكمة يمانية** »[2] ما ذنب هذا الشعب الوادع؟ بمـــاذا استحق هذا المصير ؟

إخواني ! لم يكن من حظي أن أولد في هذه البلاد المقدسة ، إنما ولدت بعيداً عنها ، هكذا أراد قضاء الله وحكمته ، ونشأت في بلاد لا تنطق باللغة العربية ، وهنا أستاذنا الجليل العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي ، إسألوه عن بلادنا فإنه مكث فيها مدة . . . بلاد بعيدة عن مهد الاسلام، بلاد بعيدة عن لغة العرب ولكننا كلنا ـ والحمد لله ـ نعتز بعقيدتنا الاسلامية ، ونعتقـــد

---

١ ـ سورة التكوير : ١٣ .

٢ ـ حديث صحيح .

Marfat.com

ونؤمن مخلصين بأنه لا سعادة لنا ، ولا نصر ولا قيام لنـــا ، إلا باتباع محمد ﷺ .

إن شاعرنا يقول : « إن من لم يرض بأن يكون تراب عتبة رسول الله ﷺ فليكن التراب على رأسه ، ومن لم يرض أن يمشي في ركاب رسول الله ﷺ ، ويتمسك بأهدابه ، فإنه لا وسيلة له عند الله ، ولا أمل له في الانتصار ، ولا سبيل لكم أيها الاخوان إلا الخضوع لقيـادة محمد ﷺ ، وإذا أبيتم ذلك - أعاذكم الله - وأبت ذلك كبرياء القومية العربية ، فان الله سبحانه وتعـالى قد حرم النصر ، وحرم العزة والكرامـــة ، وحرم الفتح ، إن الله ربط مصير العرب بقدم محمد ﷺ ، إن الله ربط سعادة العرب بمحمد ابن عبد الله ﷺ ، لم يربطها بقائد اشتراكي ، أو زعيم قومي . لا تقوم للعرب قائمة حتى يمشوا في ركاب محمد ﷺ ، إن الله سبحانه وتعالى يوم بعث محمداً ﷺ في مكة ، في اليوم الذي بعثه ، قرر في ذلك ، وفي تلك الساعة ، وفي تلك اللحظة ، أن مصير الانسانية مربوط بهذا الشخص الكريم ، وأنه لا سعادة بغير قيادته ، وبغير اتباعه . . .

إن كثيراً من الحيوانات تعتبر ، وتنتفع بالتجارب ، فما لنا لا نعتبر ؟ ماذا أعطـانا هؤلاء الزعمـاء ، وهؤلاء المتشدقون ، ؟ أي مصير بدلوا ، أي شقوة كانت قد كتبت علينا محوها ، أي اعتبار كنا فقدناه ردوه الينا ؟ هذا التاريخ المشرق الزاهي قد فقد الشيء الكثير من روعته وتأثيره في النفوس ، كنا دائمـاً نفتخر بالتاريخ

Marfat.com

الاسلامي العربي ، فصعب علينا الآن أن نتمثل به في المجـــالات العامة ، نقد أصبحت الفجوة عميقة واسعة بين المـاضي والحـاضر ، وبين الآباء والأبناء .

احتفظوا أيها الاخوان ! باابقية الباقية من الغيرة الاسلامية ، والكرامة الانسانية ، قوموا اتحملوا الدعوة الاسلامية إلى الآفاق، ستستقبلكم هذه الآفاق ، العالم يتطلع اليكم أيها العرب ، ليس من المعقول أن يحترمكم إنسان في الهند ، وفي باكستان ، وفي تركيا ، وفي أندونيسيا ، بمجرد القومية العربيـــة ، ولكن من المعقول جداً ، أن يحترمكم لإسلامكم ولإيمانكم ، ولحرصكم على الهداية ، ولأخذكم بيد الضعيف ، ولمنعكم الظالم عن الظلم ، ولاتصافكم بالفضائل الخلقية ، وتمسككم بالدعوة الإسلامية ، إن العالم الاسلامي قد فتح ذراعيه ليعانقكم ويضمكم إلى صدره ، كما ضمكم إلى صدره قبل قرون ، إن الزمان قد استدار كهيئتـه يوم خرجتم من جزيرتكم ، تحملون مشعل الدعوة الاسلامية،وفتحت لكم الهند صدرها ، فتحت لكم أفغانستان وإيران ، وسمرقنـد وبخارى ، فتح لكم للبربر هؤلاء الذين ما عرفوا الهزيمة في تاريخهم إنهم لم يخضعوا بحد السيف ، إنما خضعوا لمعجزة الاسلام ، خضعوا للاخلاص ، خضعوا للعطف والرحمة بالانسانية ، وللعـــدل الذي كنتم تحملونه معكم أينما حللتم ، خضعوا لفضل المساواة التي كنتم تعاملون بها الأمم والأفراد .

بالله قولوا لي : ما هي رسالة القومية العربية للانسانية ، وأي

Marfat.com

خير للانسانية جمعاء ، في قومية من القوميات ، قومية بقومية ، وجنسية بجنسية ، ودم بدم ، ومدنية بمدنية ، إذا افتخرتم أنتم بالقومية العربية فهنالك مئات من الشعوب تفتخر بقوميتها ، لا فضل لقومية على قومية ، ولا فضل لحضارة بائدة على حضارة بائدة إنما الفضل للرسالة الخالدة التي جاء بها محمد ﷺ ، فارفقوا بأنفسكم أيها العرب ، قبل أن ترفقوا بغيركم ، ارفقوا بنفوسكم ، ارفقوا بمستقبلكم ، ارفقوا بأجيالكم القادمة ، ارفقوا بتاريخكم ، ارفقوا بهذا الاحترام الذي لا يزال لكم عند الشعوب الاسلامية، إن العالم ينتظركم مرة ثانية لتنقذوه من هذه الجاهلية المعاصرة ، من جاهلية القرن العشرين ، التي غزت العالم ، واكتسحت العرب والعجم ، وأن تعيشوا للاسلام ، وبالاسلام ، فيعود اليكم مركزكم القديم من القيادة والهداية ، ومكانكم القديم من القلوب والنفوس، ويكون النصر حليفكم في كل معركة .

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » [1] .

---

١ — سورة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

نداء إلى رجال الصحافة والإذاعة والكتاب والأدباء وقادة الفكر وزعماء الاصلاح في الأقطار العربية

إخواني في الدين ، وزملائي في الصحافة والكتابة !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! وبعد فأعزيكم — تعزية مفجوع لمفجوع — في كارثة العالم العربي ، التي لا يوجد لها نظير في تاريخنا الإسلامي العربي القريب، وإن اللغة العربية على عبقريتها اللغوية وسعتها المعجزة ، وإن معاجمنا على غناها ، وضخامة ثروتها لتعجز عن مجاراتنا وإسعافنا في إبـــداء الشعور العميق ، الذي يملكنا في هذه المناسبة ، وفي أقل من هذه المأساة نكبة ، وأقصر منها رقعة قال أمير الشعراء شوقي :

سلام من صبـــا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعـــة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق

لقد كانت مأساة جنت على كرامة العرب في كل رقعـة من الأرض ، وكرامة تاريخهم الذي كان المؤلفون والباحثون يقفون أمامه دهشين خاشعين وذلت بها رقاب المسلمين في كل بقعـــة يسكنونها ، وهبت عليهم في هذه الايام التي انتشرت فيهـا أخبار

Marfat.com

النكبة عاصفة هوجاء من الشماتة والهزء والسخرية والتندر المرير ، والتنكيت اللاذع من جيرانهم ومواطنيهم ، لا يقدر عنفها ولذعها وتخاذل المسلمين أمامها إلا من استهدف لذلك أو شاهده .

ولقد لبست الهند الاسلامية — ككل بلد يسكنه المسلمون في عدد كبير — ثوب الحداد ، وغرقت في بحر الاسى والحزن والخجل ، ولا يزال حديث فلسطين وحديث المسجد الأقصى ، وحديث كارثة العالم العربي بصفة عامة ، يشغل أكبر جزء من الصحف والمجلات الاسلامية ، ويبحث الكتاب الكبار عن أسباب هذه النكبة في عمق ودقة ، وصراحة وقوة ، يبحثون عنها في حياة إخوانهم العرب ، الذين يدينون بحبهم ، وينظرون إليهم كالجيل المثالي للاسلام ، وكأصحاب الفضل عليهم في التخلص من جاهليتهم ووثنيتهم القديمة ، ويدوسون القرآن ويستفتونه في ذلك، فيجدون فيه البيان الوافي والجواب الشافي وينتقدون القيادة الرئيسية ، التي تحملت مسؤولية الحرب ووقف إطلاق النار ، يتناولونها ببحث ديني وتحليل علمي عملا بقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » . لا تمنع من ذلك مصلحة سياسية ولا دعاية قومية ، فان الامم تعيش على محاسبتها لنفسها وقادتها ، فان الامة خالدة والقيادات عارضة ، فلا يضحى بالامة في سبيل القيادة ، وإنما يضحى بالقيادة في سبيل الامة ، وليس أمثالكم في حاجة إلى الافاضة في هذا الموضوع .

Marfat.com

ظللنا نتابع قراءة الصحف التي تصدر من الاقطار العربية الشقيقة ، وكنا مؤمنين بأن النكبة الحديثة التي هزت الحياة ، وهزت المشاعر في كل بلد اسلامي لا بد أن تهيمن على كل ما يكتب في الصحف والمجلات ، وتطبعها بطابعها ، وكنا نتوقع أن الحديث عن أسباب النكبة ، ومواضع الضعف في مجتمعنا العربي: وفي أخلاقنا وأوضاعنا سيغلب على كل حديث وموضوع ، بحيث إذا اطلع أحد على عدد لأي صحيفة ، عرف أنها صحيفة أيام النكبة ، وصحيفة أمة منكوبة ، وصحيفة أسرة مفجوعة ، في أعز أعضائها وأفلاذ كبدها ، وأنها ستتعرض لنقد المجتمع ، النقد المخلص النزيه ، نقد الأستاذ الشفيق والمربي الرفيق ، وتتعرض لنقد القيادة التي أدت إلى هذه النتيجة المخزية التي لم ينته إليها المسلمون بعد سقوط بغداد في أيدي التتار الوحوش ، ووقوع العالم الاسلامي كله تحت أقدامهم وسنابك خيلهم ، النتيجة التي وصمت وجوه المسلمين بوصمة عار لا يغسلها ولا يزيلها إلا فتح مبين من فتوح صلاح الدين أو وقعة حاسمة مشرفة كوقعة حطين .

نصارحكم كأعضاء أسرة الأدب والكتابة ، وكزملاء مهنة الصحافة ، بأننا لم نجد هذه الصحف والمجلات العربية الشقيقة تخضع لآثار هذه النكبة ، وتنم عن أثرها العميق في النفوس والقلوب ، وفي الادب والبيان كما كنا نتوقع ، ولم نر الباحثين من العلماء والكتاب يبحثون عن جذور هذه النكبة ، الدقيقة العميقة في أعماق المجتمع العربي ، الجذور التي مهدت السبيل لهذه النكبة ، وسهلت سيرها وتقدمها بل دعتها لشق طريقها إلى الأمام ، وتغزو

وتفتتاً من قصر من زجاج أو بيت من ورق ، وإنها لا تحتمل أقل صدمة في معترك الحياة .

وقد بلغ هذا الاسلوب من الحياة أوجه وقمته في الحواضر العربية ، وتزعمت القيادة المصرية بأقوى وسائل الزعامـــة التي لم تتهيأ – ولا أقدر انها ستتهيأ في القريب العاجـــل – لبلد آخر في الشرق العربي ، وقد كان انهيار هذه الحياة الانهيار الفظيـع درساً قاسياً لكل بلد إسلامي عربي على وجه الارض ، وآخر فرصـــة لمراجعة سيره واتجاهه ، ومقاييس سعادته ونجاحه ، وقـــد علمتنا هذه التجربة المريرة أن كل بلد يتجه هذا الاتجاه معرض لهـــذا الانهيار عاجلا أو آجلا .

وقد تحقق وأسفر كالشمس في رابعة النهار أن شيوع المنكرات والبـــذخ والترهل في الحياة ، وظهور ما يغضب الله ورسوله من أعمال وأقوال ، وأخلاق ، وعادات ، ومايضعف نشاط الشعب وحماسه في سبيل العقيدة والكرامة ، والفوضى الفكرية التي تجرها الصحافة المحترفة ، والأدباء الماجنون ، والمجلات الخليعة والادب المكشوف ، تفقد الأمة روح المقاومة للعدو ، والثبات على المبدأ وتحمل الشدائـــد ، وتحرم البلاد والأمة من نصر الله ، وتعرضها للخذلان ، رأينا مثاله الفظيـع في المعركة الأخيرة .

وقد ألقت الحياة في مصر وصحافتها وإذاعتها ونتاج مكتباتها العملاقـــة ظلالها الكثيفة السوداء على المجتمعات العربية كلها ، وخضعت لتأثيرها في قليل أو كثير على قرب بعضها وبعـد بعضها

Marfat.com

وحب بعضها وكره بعضها ، وفعلت الحضارة الغربية ، وتسهيلات التوريد ونشاط التجارة الأجنبية ؛ وإقبال هذه الشعوب على ترفيه النفس بنهامة جائحة غربية فعلها الطبيعي في هـذه البلاد ، فاصبحت الحياة في جميع الأقطار العربية متشابهة متشاكلة ، وهذا ماينذر بخطر كبير ويشغل فكر المحبين المخلصين الذين يربطون مصيرهم ومصير الاسلام والمسلمين بهذه البلاد وبهذه الشعوب .

إن وجود هـذه الحياة التي أشرنا إليها إشارة لطيفة لخطر جاثم على البلاد ، وسيف مصلت على رقابها ، ضعف العـدو أو قوي ، وقرب أو بعـد ، كما أن جود البركان المتهيء الأنفجار في بلد منذر بالخطر ، وأعظم هولا من كل خطر خارجي ، أو عـدو متربص ، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في أول إنذار تقـدم به إلى قومه بعـد ماأكرم بالنبوة ، يوم قام على جبل الصفا ونادى باعلى صوته : « ياصباحاه » فهرع إليه أهل مكة ، وأكبر ظنهم أنه سيخبرهم بعدو من وراه الجبل ، يريد أن يهجم عليهم على غرة وهو الصادق الأمين ، فقال ، « يابني فهر ، يابني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريـد أن تغير عليكم أصدقتموني » ؟ قالوا : نعم ، قال : « فاني نذير لكم بين يـدي عذاب شديد » ! أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهـددهم ، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي كانوا يـدينون بها ، والأصنام التي كانوا يعكفون عليها .

وقـد أعاذكم الله ، وأعاذ المسلمين في بقاع الأرض عن

Marfat.com

الوثنية التي كان قـــد غاص فيها العرب الأولون إلى الآذان ، وحمى هذه الجزيرة من أن تعبـد فيها الأوثان ، فليس لأحد على وجه الارض أن ينذركم بعاقبة أهل الشرك والوثنية ، أو يخاف عليكم من مصير الـكفار والمشركين ، ولكن الحياة ــ وأرجو عـــدم المؤاخذة ــ المترفهة المترهلة الباذخة المترفة التي نعيشها في كثير من بلادنا الاسلامية والعربية ، وإيثار مصلحة النفس على مصلحة الجماعـــة ، والنهامة للمادة ، والتهالك على الشهوات والحب الغالي للحياة ، والكراهية الزائـدة للموت ، والاستخفاف بمحارم الله ، والوقوع في كثير من حـدوده ، ثم الانجراف المتهور وراء النعرات الجاهلية ، والشعارات القومية ، والافتتان بالاشتراكية والشيوعية ، وقلة الشكر على ما نحن فيه من نعيم ويسر ، وحرية وفرص ، والتذمر من كل موجود ، والتطلع لكل مفقود ، وقلة الاعتبار بالدروس القاسية ، والحوادث الواقعة من حولنا ، والحرص الشديـــد على تقليد مصر ، واتخاذها المثل الكامل في كل شيء ، وعدم المحاسبة للمجرمين ، الذين جروا على العالم العربي هذا الشقاء والبلاء ، كل ذلك أشد خطراً على هـــذه البلاد من عدو قاعد بالمرصاد ، وهو الخطر الذي له مظاهر وألوان وأشكال ، لاتحـــد ولا تستقصى ، ومن مظاهره إسرائيل ، التي لم تكن لتحلم بهـــذا الانتصار « الفريد » الذي لا يوجـــد له مثيل في تاريخها الطويل ، الذي يمتد على ألفي سنة ، ولم تكن لتجرأ على غزو بلادنا المقدسة : وتكسب المعركة في أربعة أيام ــ أو في أربع ساعات كما يقول

بعض الخبراء ـ اسمحوا لي أن أقول : إن من أعظم أسباب النكبة التي نكبت بها مصر وامتدت هذه النكبة إلى جميع البلاد العربية، الصحافة والاذاعة المصريتان ، فقـــد لعبتا دورا رئيسياً في إفساد الذوق ، وشل النظام الفكري ، وتخـــدير الاعصاب ، وتعمية الأبصار عن إدراك الحقائق،ونشر المجون والعبث بالقيم والموازين، وأصول الاخلاق والشرائع ، وإن كل شعب يعيش تحت وطـــأة هاتين السلطتين ، اللتين تستحق أن تسمى كل واحدة منهما بصاحبة الجلالة ، ويهبها قلبه وعقله ، وسمعه وبصره ، لا بـــد أن يفقد الاتزان ويخـل الميزان ، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، ولا يجب طيباً ولا يعاف خبيثاً ، وإنه عرضة لكـــل خطر ؛ وهدف لكل إهانة ، وجـــدير بكل هزيمة :

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا».

إن هذه النكبة ـ لا سمح الله بها ـ لاتمنع ولا تسد في وجهها الابواب والطرق بالتقدم في المـدنية ، والزيادة في أسباب الترفيه والتسلية ، ولا باقتباس المناهج الفكرية ،أوالمـذاهب الاقتصادية الحديثة ، فقد فعلت مصر وسورية كل ذلك ، فلم يغن عنهما شيئاً، بل كانت من أسباب النكبة .

إنه لا يحال بينها وبين الشعب إلا بالانابة إلى الله تعالى ظاهراً وباطناً ، والتمسك بحبله والالتجاء إلى عتبته ، وتحكيم الشريعة في الحياة ، وإخضاعها للاداب والاخلاق الاسلامية ، وترك المشاقة مع الله ورسوله والدخول في السلم كافة ، والاخذ بالجـد واللباب

Marfat.com

في المدنية والحياة الفردية والاجتماعية ، وتوطين النفس على تحمل المكاره ، وشظف العيش ، وخلال الرجولة والفتوة ،والعمل بما أمر به مربي الجيل الاسلامي الاول عمر بن الخطاب بقوله : **وتمعددوا** [1] ، **واخشوشنوا** [2] ، **واخشوشبوا** [3] ، **واخلولقوا** [4] » . وحياة الاقتصاد والبساطة في جميع المجالات ، والكف عن الاسراف والمجون ، والتبذير الفاحش ، والمواساة لجميع الطبقات ، التي أمر بها الاسلام ، ومحاربة الفقر المـــدقع ، والغنى الفاحش في وقت واحـــد ، في ضوء تعاليم الاسلام ، وأسوة الرسول والصحابة والتابعين لهم باحسان من غير تقليـــد لمذهب اقتصادي مستورد ، ومن غير خضوع لفكرة أجنبية ، والبراءة من القيادة التي عبثت بعقول الامة ، وعاثت في البلاد والعباد ، وجرت عليها الشقاء الذي لا مثيل له في تاريخنا الطويل ، وقد قال الله تعالى : « **لا تركنوا إلى الذين ظلمـــوا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** » . وقال : « **واتبعوا أمر فرعون ،وما أمر فرعون برشيد** » .

والصحافة والاذاعة ، والادب والكتابة هي أقوى وسيلـة

---

١ — تمعدد الغلام : شب وغلظ ، وقيل معناه : تشبهوا بعيش معـــد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف .

٢ — اخشوشن : تخشن في المطعم والملبس .

٣ — اخشوشب : صار صلباً كالخشب في احواله وصبره على الجهد .

٤ — اخلولقوا : تبذلوا في الملابس .

Marfat.com

لغرس هـذه المعاني في النفوس ، وتحبيبها إلى العقول ، وتسريبها في الحياة ، وأخاف أن تكون هذه آخر فرصة – لا قدر الله – للانتباه من السبات ، وتـــدارك مافات ، والاستعداد لما هو آت فأرجو أن تتجلى هذه المعاني في كل عدد من اعداد صحفنا، وفى كل برنامج من برامج إذاعاتنا ، وفي معظم ما نكتب وما نقول ، وان تجند لها الحكومات وسائلها، ويجند لها الادباء والشعراء والكتاب والصحفيون والمـذيعون قواهم ومواهبهم وطاقاتهم ،ويسخروا لها القرائح والعبقرية الادبية ، والمعاني الشعرية والبراعة الكتابية ، حتى يؤمن بها الشعب إيماناً راسخاً ويتخـــذها منهجاً في الحياة ، وبذلك لانعتصم عن نكبة جديدة فحسب ، بل نستطيع بحول الله أن ننقذ العالم العربي من هذا الوضع الفظيع ، ونستعيـــد فلسطين والمسجـد الاقصى ، ونسترد ما خسرناه من كرامتنا واعتبارنا ، ومن كرامة التاريخ الاسلامي والعربي ، الذي فقد الشيء الكثير من قيمته وجلاله وروعته ، وثقة الناس به .

وهـذه أمانة في أعناق جميـع الكتاب والادباء والصحفيين ، وحملة الاقلام ، والخطباء على المنابر ، وزعمـاء الشعوب العربية ، وقادة الفكر والرأي

« اللهم هل بلغت ؟ ! ».

Marfat.com

Marfat.com

إزالة أسباب الخذلان
أهم وأقدم من إزالة آثار العدوان

إن الكتاب الذي آمنا به ـ نحن المسلمين ـ ليس كتاب عقائد وأحكام فقط ، بل هو كتاب تعرض لبيان سنن الله في خلقه ونواميسه في الكون ، وذكر أنماط مختلفة من البشر ، ونماذج متنوعة من الحياة ، ومناهج متباينة من الاخلاق ، وما أودع الله تعالى فيها من الخواص والطبائع التي لا تفارقها في ملايين من السنين ، وما قرن بها من النتائج والآثار التي لا تتخلف عنها في دور من أدوار التاريخ ، وما قرر عليها من الجزاء والعقوبات ، وما ربط بها من السعادة والشقاء ، والبؤس والرخاء ، والهزيمة والنصر ، والقوة والضعف ، وقد أعلن أنها سنن أزلية لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ولا تلغى لمصلحة أمة أو إنسان ،

---

١ ـ أعدت هذه المحاضرة لدورة رابطة العالم الاسلامي المنعقدة في منتصف رجب ١٣٨٨ هـ وقرئت بعنوان ـ الطريق الوحيد إلى النصر ـ وحظيت بموافقة عامة وتأييد كلي وعلق عليها ثمانية من أعلام العالم الاسلامي وأبرز أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة .

Marfat.com

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »[1] ولم يقص القرآن علينا قصص الامم الخـــالية والقرون الاولى في تفصيل وتكرار ـ والقرآن ليس كتاب تاريخ وأساطير ـ ولم يفض في الحديث عن اليهود ، ولم يتوسع فيه هـــذا التوسع ، إلا ليؤمن المسلمون ـ وهم الأمة الأخيرة ـ بنتائج الأعمال والاخلاق ومناهج الحياة ، ويعتبروا بمصير اليهود ، وما كتب عليهم من الشقاوة والسعادة ، والهزيمة والنصر ، في مختلف أدوار تاريخهم ، خاضعاً دلك كله لمنهج الحياة الذي آثروه ، والاخـــلاق التي تخلقوا بها ، والحياة التي عاشوها .

٤

فهم الأمة التي أكرمها الله بالنبوة والملك ، **« واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين** [2] . **« يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين »** [3] .

واليهود أمة أكرمها الله بعز وكرامة ونصر وغلبة ، وبركات ونعم ، عن طريق النبوة والدين الذي آمنوا به وتفانوا في سبيله ، وعن طريق الطاعة والامتثال لأوامر الله ، ثم طلبوا كل ذلك عن طريق الدنيا ، وعن طريق الملك ، وعن طريق المادة ؛ وعـــن

---

١ — سورة الاحزاب .
٢ — سورة المائدة .
٣ — سورة البقرة .

Marfat.com

طريق المكر والدهاء، والمؤامرة والسرية وعقلية الهدم والتخريب، واستغنوا عن أسباب النصر الحقيقية ، فقال : « **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار** »[1] .

وأعلن كحقيقة خالدة عالمية : « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »[2] . وقال مخاطباً المسلمين : « **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً** »[3] .

هذا هو المنهج القرآني لنتائج أعمال الأمم وأخلاقها ، الذي تناساه المسلمون في الدور الأخير في مشارق الارض ومغاربها ، وفي البلاد التي تزحف تحت العبودية ، على طريقة سواء ، وأخذوا بسحر المدنية الغربية وفلسفاتها ، واعتمدوا في تغيير الاوضاع وكسب المعركة ، ومواجهة القضايا المعقدة الدقيقة ، على الاساليب التقليدية السطحية التي لم يتمسك بها الغرب في حل قضاياه إلا مدة يسيرة من تاريخه القديم ، ثم دفعها إلى الشرق ليتعلل بها ، وهي الدعاية ، وعقد أكبر عدد من الحفلات والمؤتمرات لإثارة الجماهير وإرعاب الخصوم ، والدعاية في الصحف ، واتخاذ عدد هائل تضيق عنه الدفاتر والصحف من القرارات والمشروعات .

واعتقد الشرق الإسلامي ، وشعوبه وحكوماته أنه الطريق

---

١ ـ سورة ابراهيم .

٢ ـ سورة الرعد .

٣ ـ سورة النساء .

Marfat.com

الوحيد لحل القضايا والوصول إلى الأهداف ، وعضت عليهـــا بالنواجذ . وليس تاريخ الشرق الاسلامي في حل القضايا والكفاح السياسي إلا تاريخاً طويلا متصلا ، لهذه التجربة الفاشلة ، والتفكير السطحي الخاطيء ، الذي لم تحل به قضية في بقعة من بقاع الأرض في عهدنا ، والذي ليس إلا ضرباً من التسلية ، واستنفاد الجهود والقوى ، واستفزاز الشعور والعواطف في غير نتيجة، ولم نعرف بلداً غربياً ، أو شعباً من الشعوب الغربية ، أو الافريقية اقتصر على هذه الاساليب ، واعتمد عليها ، ثم وصل إلى النتيجة ، أو نال الحرية ، أو الاستقلال ، أو دحر العدو الجاثم على صدره .

وحسبنا قضية فلسطين مثالاً ، فقد اعتمدنا في حلها من أول يوم على نفس الاساليب التقليدية التي تلقيناها من الغرب ، في غير وعي واجتهاد .

فلا أعرف قضية شرقية — فضـــلا عن إسلامية — ألقي في موضوعها من الخطب ، وكتب فيها من المقالات ، وعقد لهـا من الحفلات والمؤتمرات ، واتخذ لهـــا من المشروعات والقرارات ، ونظم لها من المواكب والمظاهرات، ما كان لهذه القضية التي ظلت الشغل الشاغل للعرب والمسلمين ، بعدما وضعت الحرب الكونية الاولى أوزارها ، وأعلن مشروع وطن اليهود ، فكانت مقدمة كل خطبة ووعظ ، وتكأة كل خطيب ومتحـــدث ، وسند كل زعيم وقائد ، في كسب الرأي العام ، والسيطرة على عقـــول الشباب والجماهير .

Marfat.com

فقد ضربت هذه القضية الرقم القيـــاسي في كثرة الحروف التي كتبت على الورق ، وعدد الكلمات التي انطلقت إلى الفضاء وهي قضية في منتهى العدل ، وأقرب القضايا في العالم المعاصر إلى الفهم والعقل ، ثم لم يغن ذلك كله عنا شيئاً .

واستطاعت إسرائيل ــ هذه النقطة المغمورة ببحار من البشر ــ أن توسع مملكتها إلى حدود لم تكن تخطر بالبال قبل اليوم المشئوم « ٥ حزيران » وتمتلك القدس الشريف ، والمسجد الاقصى المبارك الذي حرمته منذ آلاف من السنين ، وكان حظها من هذه الاساليب التي تمسك بها العرب والمسلمون ، والثروة التي أنفقتها من الكلام ، أو من المؤتمرات والحفلات ، أو من البيانات والإعلانات قليلًا ، إلى حد يدعو إلى الدهشة والاستغراب .

وظلت معركة الكلام حامية طول هذه المدة ، ولم تقم محاولة جدية ، ولا برزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحيـــاة في الشعوب والبلاد ، التي اكتوت بنار هذه الجناية الغربية الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث ، وتعرضت للخطر الصهيوني بطريق مباشر ، ولا دعوة إلى إزالة أسباب السخط والخذلان التي بينهـــا القرآن في أسلوبه البليـغ السافر ، وكسب أسباب النصر الحقيقية التي دعا إليها الكتاب والسنة ، وحفل بنتائجها وأمثلتهـا التاريـخ الاسلامي ، ولم يشعر أحد بحاجة إلى استفتاء القرآن والعقل الايماني الواعي المنصف ، الذي لا يكذب ولا يخـدع ، عن أسباب هذه النكبة وحدوث هذه المشكلة الطريفة التي حار

Marfat.com

في تعليلها العقلاء ، وعجز عن حلها الزعماء ، وردهـــا إلى أخطاء ارتكبتها الشعوب العربية، منذ ثورتها على الدولة العثمانية الاسلامية، وانضوائها إلى الحلفاء الآثمين المعتدين ، والقتـــال بجوارهم ، ولم يلتفت أحد إلى محاربة الادواء الخلقية التي تسبب الوهن ، وهو حب الدنيا وكراهية الموت ، والرقة والنعومة ، والاخـــلاد إلى الراحة .

بل بالعكس من ذلك لم يزل يجد، ويستفحل في هذه الشعوب والاقطار من الدعوات والهتافات ، والشعارات والفلسفات مـا يبعدها عن الدين ، ويغضب الله ورسوله ، ويقطع صلة الامة عن النصر ، ويحول بينها وبينه، من دعوات جاهلية وأسماء مخترعة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، والاعتماد على أشخاص وقادة لا يزنون عند الله جناح بعوضة .

واكتفت بعض الدول التي تزعمت هذه القضية ، ووعدت بالنصر والفتح المبين ، بالغوغائية والسلبية ، والدعاية الفارغـة ، والجهاد في غير عدو ، واستنفاد أكبر قدر من الاصوات ، وعدد من الحروف والكلمات التي خلقها الله ، وزخرت بها اللغة العربية العبقرية ، واستخدام أقوى حناجر وأحد أقلام، لكسب المعركة ، حتى جاءت الساعه التي لا ينفع فيها إلا الجد ، والحقيقة، والتهالك على الموت ، والمغامرة ، والبطولة ، والتقشف ، والجلادة ، فانهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد ، وانحسر فيضان الكلام أمام جيش لا يعرف إلا المغامرة والاقتحام ، وكان ما كان ، مما

Marfat.com

نكس رؤوس المسلمين ، وأذل رقاب العرب في مشارق الأرض ومغاربها .

وكان من المؤكد المضمون ، والبديهي المعقول ، ومما يوافق طبيعة هذه الأمة،ويتفق مع تاريخها الطويل أن العرب سيعتبرون بهذا الدرس القاسي ، الذي لا درس بعـــده ، وأنه سيتغير تيار الحياة في هذه البلاد ، وأنها ستستأنف حياة جديـــدة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .فيحل الايمان مكان الارتياب والاضطراب، والاسلام الحقيقي مكان النفاق والرياء ، والتقشف والخشونه مكان الرقة والنعومة ، والاخذ بالجد مكان التمسك بالقشور والمظاهر ، وأنهم سيبدلون أسباب الترفيه والتسلية بأسباب الفداء والتضحية ، وأن الشعوب العربية ستعيش في ظل الاستعـداد والحذر ، وفي « حالة طواريء » ،و أنها ستقوم في كل بلد عربي — فضلا عن مهد الاسلام ومأزر الايمان — محاولات جدية لمحاربة أسباب الفشل والضعف ، والاتجاه إلى التمتع الرخيص والتهام اللذة الفارغة ، وما يحدث في الأمة الرقـة والجبن وينسيها العار الذي لا يغسله إلا الثأر، والجروح التي لا تضمدها إلا الفتوح .

إننـا أمام الامر الواقع المرير ، وسيف الخطر مصلت على رقابنا ، وقـــد تمثلت لنا كلمة الفاتح الاسلامي العربي طارق بن زياد من جديد : (**أيها النـــاس أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر.**)وقد مضى زمن الكلام ، وزمن القرارات والبيانات ، والحفلات والمؤتمرات،

Marfat.com

وأصبحت لا قيمة لها ولا تأثير . لقد أصبحت الطرق الدبلوماسية، والاساليب السياسية عقيمة ، لا يحتفل بها أحد. إن أكبر سياسة ودهاء ، ورأس الحكمة ، هو الاخلاص ، فلا تزال أكبر قوة تخضع للاخلاص وتحترمه، كما كان ذلك قبل مئات أو آلاف من السنين ، يوم لم تتعقد المدنية هذا التعقـــد ، ولم تتوسع العلوم هذا التوسع .

لقدأصبح الغرب، الذي لا يزال أستاذاً في السياسة والدبلوماسية، قليل الاحتفال بهذه الاساليب القـــديمة التقليدية ، التي لا تزال الحكومات الشرقية تعتمـد عليها كل الاعتماد ، وتؤمل فيها كل خير ، وصار ينظر إليها كمسرحيات قديمة كانت تمثل في الدور البدائي، ثم تقدم العالم تقدماً كبيراً .

إن طارقاً قال لجيشه : (وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم)، ولسان الحقيقة يقول لنا : لا وزر لكم أيها المسلمون والعرب إلا الاخلاص .

إننا لانزال نعيش مع عقليتنا القديمة في فجر القرن العشرين ، ولا نزال نعتمد على الاساليب العتيقة ، التي آمن الغرب وآمن العالم كله بتفاهتها وقلة جدواها ، فلنخلص لله ولنـدخل في السلم كافة ، ولنطبق ما نقول ، ولندع النفاق، ولنؤمن بأن هذه الحياة ،الحياة التي نحياها ، ولا نزال نزيد في أسباب فسادها وتعفنها ، كشارب ماء البحر ، الذي كلما شرب منه ازداد عطشاً ، هي مصـــدر الخطر والمانعة من النصر .

Marfat.com

في وادي مكة قام محمد بن عبد الله ﷺ قبل ثلاثة عشر قرناً على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته :يا صباحاه! وهرع الناس إلى سفح الجبل ، يستخبرون الخبر ، وكانت الايام أيام غارات قبلية ، وأيام عـدو يكمن في الجبال ، ويغير على غرة من الرجال ، فقال وهم عيون شاخصة وآذان صاغية : (أرأيتكم لو اخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريـد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟) فقالوا : نعم ، فقال مشيراً إلى منهج حياتهم الذي آثروه،وأسباب (النكبة) التي جمعوها ، وأسباب النصر التي ضيعوها ، (فاني نـذير لكم بين يدي عذاب شديد) .

إن هـذا المنهج الذي آثرناه ، وإن حياة التمتع والانتهازية ، والابيقورية ، التي لا تعرف أدباً ولا خلقاً ، ولا تحترم ديناً ولا شريعة ، ولا تراعي مصلحة وعاقبة ، هي أشـــد خطراً من كل عدو خارجي ، وما مثلها إلا كمثل سفينة مثقوبة ثقباً واسعاً يدخل منه الماء بقوة وسرعة ، وركابها « الخياليون » متغاضون عن هـذا الثقب ، متغافلون عن سـده ، متخوفون من فريق من القراصنة الموهومين ، وهـذه الحياة هي التي مهدت الطريق في القرن الخامس للغارة الصليبية ، وفي القرن السابع للزحف التتاري ، وفي القرن الثـــالث عشر للغزو الاوربي ، وفي آخر القرن الرابع عشر الذي نعيش فيه للفتح الصهيوني .

إنها طبيعة هذه الحياة التي لا تفارقها ، ولو قامت ألف محاولة، وأنعقدت ألف محالفة، وبرزت ألف قيادة ، لم تنفع مع هذه الحياة

الهازلة اللاهيةالمستخفة بأحكام الله ، المعتـــدية على حدود الله ، المتوكئة على معسكر غربي أو شرقي،وحليف اشتراكي أورأسمالي، إنه لاوزر لنا إلا الايمان والاسلام ، وإلا الصدق والاخلاص .

إن وجود النفاق فى قادة العالم الاسلامي وزعمائه ، والتناقض في أقوالهم ، ووجود الجاهلية اللاهية ، والاندفاع المتهور إلى الترفيه والتسلية، والتعامي عن الحقائق والاخطار المحدقة ، ووجودالاعمال والاخلاق المغضبة لله ولرسوله ، والمانعة عن النصر ، وقلة الغيرةعلى الدين والعرض والشرف ، وحرماتالله ومقدساته ، والمداهنة لمن حارب الله ورسوله ، وقاتل أولياءه وأنصاره ، وطاردهم واضطهد الدين في بـــلده ومركزه ، وتسبب في ذل الاسلام والمسلمين ، والنكبة العظيمة التي لا يوجد لها نظير في قرون كثيرة من تاريخ الاسلام ـ وأصر على ذلك وافتخر به ـ والتودد إليهم، والانتصار لهم ، بـــل الغضب والحمية لهم ، وإشاعة أسباب الفساد والتحلل والميوعة في الشعوب الاسلامية وبلاد المسلمين ، والتلاعب في أيدي الاجانب ، واعداء الاسلام في الخارج ، وتحقيق أغراضهم ومخططاتهم بشعور وبغير شعور ، وبقصد وبغير قصد ، كل ذلك مصدر كل شؤم وكل خيبة وكل ذل وكل نكبة .

إذن فلا ينفع شيء حتى نقوم بمـــا نستطيع من إصلاحات جـذرية ، وإزالة أسباب الفساد والميوعة ، التي لا يستطيع معها أي شعب أن يقاوم العدو ، ويتحمل الشدائد ، ويصبر على المكاره، ويفضل الموت على الحياة، والشرف على الذل والهوان ، ولا تزال

Marfat.com

إسرائيل الدولة البغيضة عبرة لنا في صوغ الحياة صياغة جديدة وفي الزهـد في الملاهي ، وأسباب الترفيه والتسلية ، ولا تزال عبرة في حياة التخشن ، والتقشف ، والاقتصاد في الملابس ، والمطـاعم ، وفضول المدينة وحواشيها [1] وحسبنا الشعب الصيني الذي تقشف في الحياة تقشفاً لا مزيد عليه ، وهو يعيش في حالة طوارىء ، وهو أغنى شعب في النفوس والمواهب منذ عقود من السنين .

إن الكفتين اللتين تملكتهما القيادتان المتنافستان في العالم المعاصر كفتان متباينتان كل التباين في الخفة والرجحان ، فالكفـــة التي تملكها وتتزعمها القيادة اللادينية كفة قد أثقلها تحقيق المطالب المادية وإشباع الغريزة الانسانية والاغراءات التي لاقبل للشاب بهـــا ، والانسياق مع الرغبات والانجراف مع الشهوات ، والاساليب الحديثة التي حذقها وبرع فيهـا أدباء هذه البلاد (والتي لا تزال بلادنا العزيزة المقدسة متطفلة عليها تلميـــذة متواضعة فيها) ، فلو كان الحـــكم بالمقارنة وتكافؤ القوى والقلة والكثرة ، والضعف والقوة لشالت الكفة الاسلامية إلى آخر حد ، ورجحت الكفة التي

---

١ — أخبرني بعض الثقات بأنه لا يسمح لأحد في إسرائيل أن يشتري أكثر من بـــذلتين في السنة ، أما الحرير فمحرم على الرجال مسموح للنساء فقط ، وقد اندهش اليهود برؤية البذخ والرياش الفاخر في المدن العربية التي استولوا عليها ، وقالوا : لو أن أحداً من كبرائنا فعل هذا لنفيناه ، وليس عنـدهم تلفزيون حتى الآن إلا ساعتين للتثقيف ، والتـــدريب العسكري إجباري بين ١٨ و ٥٠ سنة » .

Marfat.com

حملتها القيادة التحررية إلى آخر نقطة .

هنالك يعرف كل من رزق البصر – فضلا عن البصيرة والفهم السليم ، فضلا عن الفراسة والألمعية – أنه لا أمل لأصحاب الكفة الثانية ، كفة أنصار الفكرة الاسلامية ، وأولياء الأمور في البلاد التي تقوم على أساس الاسلام ؛ إلا في الرجوع الى الاسلام بالمعنى الصحيح الذي لا يشوبه شيء من النفاق ، والتدرع بالاخلاص الذي لا يخالطه شيء من الرياء ، وبالانابة إلى الله إنابة صادقة لا يمازجها شيء من التردد والشك ، وصوغ المجتمع والحياة صياغة دينية لا حظ فيها للجاهلية ، والحياة التي قضى الله لها بالخذلان ، وبين سخطه عليها في القرآن ، وقص لها القصص ، وضرب لهاالامثال من حياة الأمم المعذبة فيالقرون الخالية،والعكوف على الشهوات، وتحقيق كل ماتطلبه النفس الحيوانية الأمارة بالسوء ، ويزينه الشيطان ، من غير تقيد بدين وشريعة وآداب وأخلاق ، والجشع والنهم للذة والمنفعة ، والأثرة الفاحشة ، والاكتناز والاحتكار، والترف المجنون على حساب الآخرين ، وبخس حقوق الفقراء ، والتعامي عما يعيشون فيه من فقر مدقع ، وبؤس مبك، وإنزالهم إلى درجة أحط ، من درجة الحيوانات والدواجن ، والقرآن مملوء بهذه الأمثال والقصص .

وقدقال الله تعالى: (**وإذا أردنا أن نهلكقرية أمرنامترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** [1] (وكم أهلكنا

---

١ – سورة الأمراء .

من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين) [1] وقد كان في معركة بدر الحاسمة التي غيرت مجرى التاريخ وصاغت العالم صياغة جديدة ، درس لنا معشر المسلمين ، فقد كانت كل القرائن والشواهد تدل دلالة واضحة على انتصار المعسكر المكي الزاحف الذي كان يقوده أبو جهل وأصحابه ، وتغلبه على المعسكر الاسلامي الذي كان يقوده محمد ﷺ بحكم جميع المقاييس التي آمن بها البشر، والتجارب العسكرية التي سجلت في التاريخ مما يتصل بالعدد والعدد ، والميرة والمدد ، وكان لكل ذي بصر أن يتكهن بالنتيجة ، ويعلن أن المعسكر الزاحف من مكة سيقطع شأفة اللاجئين إلى المدينة وأنصارهم ، ويخمد الجذوة الأولى من الدعوة الاسلامية إلى آخر الابد ، وقد عرف ذلك الرسول ، الذي كان حظه من معرفة طبائع الاشياء وحقائق الامور أكثر من كل أحد ، هنالك وضع في كفته و كفة أصحابه « السنجة » [2] التي رجحتها رجحاناً لو وزن بها العالم كله بما فيه من جيوش وعساكر وحكومات ، ودول ومدنيات ومجتمعات لرجحت .

فربط مصيره ومصير أصحابه بالايمان والعقيدة والدعوة والرسالة فقال : (**أللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد**) وصدقه

---

١ — سورة القصص .

٢ — سنجة الميزان : مايوزن به كالرطل .

Marfat.com

الله تعالى في ذلك ، فلم يكن ذلك فكرة مرتجلة أو حيلة مبتدعة أو هتافاً تلتجيء إليه الحكومات أو القيادات في أيام عصيبة من الحروب أو الازمـــات في حياة الاحزاب والقيادة ، ثم تتناساه وتتخلى عنه ، بـــل كان تصويراً للواقع ، وإعلانا لميثاق ، وكانت النتيجة التي ينعم في ظلها العالم الاسلامي من خلافة أبي بكر إلى يوم الناس هذا ، ويأكل المسلمون جميعاً من رفدها وعلى مائدتها الممدودة من أسوار القسطنطينية إلى جزر المحيط الهندي ، ومن خليج البصرة إلى جبال أطلس .

إن مثل بلادنا الاسلامية ــ وخصوصاً البلاد التي اكتوت بنار النكبة الاخيرة وعارها ــ كمثل بيت وقع فيه حريق عظيم ، فانه لا يحتاج إلا إلى المطافيء القوية السريعة ، وهـــذه المطافيء هي محاربة أسباب الفساد ، وتنفيـــذ الاصلاح العام الشامل ، أو الانطلاق أو بدء السير باخلاص وعزم في هذا الاتجاه .

ولكن لاشيء يـــدل على أن هناك وعياً صحيحاً وإقراراً بالخطأ والتقصير ، وقصداً لاصلاح وتغيير ، بل كل شيء يدل أنه ليس هناك مع الاسف إلا الاصرار والتمادي ، والدفـاع عن الموقف الذي وقفناه ، والإستمرار فيه ، بل تدل بعض الدلائل والقرائن على أننا بدأنا نمد أيدي الصداقة والتودد من جديد إلى القادة الذين جروا علينا هذا الشقاء ، وورطوا العالم الاسلامي والعربي في هذه الكوارث التي لا آخر لها ، فضلا عن أولئك الذين يحاربون عنهم بكل حماسة وإخلاص ، ويتفانون في حبهم ، والدفاع عنهم ، وتبرير

Marfat.com

مواقفهم ، وتبرئتهم عن كل خطأ وذلة ، وذلـــك يثير غضب وسخطه ، ويحرم نصره ، وقد قال الله تعالى :

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) وقال: **(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)** .

إن أول خطوة إيجابية مباركة : هو النـــدامة ، والأعتراف بالخطأ ، والاقرار بالاخفاق الذي منينا به ؛ وبأننا أخطأنا الطريق .

والخطوة الثانية : إزالة أسباب الخذلان ، التي تحرم من النصر الالهي ، والعزة والـــكرامة في الدنيا ، والانتصار في المعركة ، نتتبعها تتبعاً أميناً دقيقاً ، ونحكم على أنفسنا بالعـدل ، ونتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ونؤمن إيماناً صادقاً بأنـــه لا ملجأ من الله إلا إليه .

والخطوة الثالثة : أن نحارب الفساد في كل مجال من مجالات الحياة، ونزيل النفاق من كل شعبة من شعبها ومن كل طبقة من طبقات المجتمع ، ونترك محاربة الله ورسوله ، وإعلان الحرب على الاسلام ـ من الدعوات والفلسفـــات إلى الأعمال والأخلاق ـ وندخل في السلم كافة ، ونعتمد على العمل والكفاح ، وقوة الايمان والغيرة الاسلامية ، والأمور الجدية ، وحياة التقوى والتقشف ، والزهد والبساطة ، أكثر مما اعتمـــدنا على القشور والمظاهر ، والأساليب السياسية التقليـــدية ، والدعايات الفارغة السطحية ،

Marfat.com

ونبدي سخطنا وبراءتنا من القيادات الراعنة التي ورطتنا في هـــذا المأزق الذي لا متقدم فيه ولا متأخر ،هو مقتضى الايمان والعقل السليم ، وشرط للخلاص من الأزمة ، وبدء الانطلاق من جديد ، ودليل على صحة الحواس ، وسلامة العقل ، وحسن القصـــد ، ووجود الغيرة في النفس .

ألا إننا ــ ونحن أصحاب الرسالة الأخيرة الخالدة ، وخير أمة أخرجت للناس ، وورثة تعاليم النبوة وأخلاقها ــ أحسن حالا ، وأشرف مكانـة من قوم يونس الذين أدركهم الله برحمته في آخر لحظة عنـــدما صـدقت قلوبهم ، وصحت توبتهم ، وظهر تضرعهم ، فقال :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ».

وليس لنا إلا أن نقوي صلتنا بهـذا الدين الذي حملنا الله أمانته ، وبهذا الكتاب الذي أورثناه ، ونحارب الفساد الطاريء الدخيل ، وننفض عنا الغبار الذي طرأ علينا من الخارج ، ونبرز أمام الأمم كالذهب الخالص الوهاج الذي التقط من الماء والطين ؛ فلا يشك أحد في قيمته وأصالته ، وصفاء جوهره وكرم معـدنه ، وحاجة البشرية إليه :

هجان الحي كالذهب المصفى صبيحة دية يجنيه جان

الفَتْحُ للعَرَبِ المسلمين

لاشك أن اليهودية العالمية قد نجحت نجاحاً فوق الحساب في تحقيق مراميها وأهدافها الكثيرة ، التي ظلت آلاف السنين تحلم بها ، وفي تطبيق مخططاتها الكثيرة ، التي كانت تعتبر ضرباً من غرائب الهوس ، وطرائف الجنون في سهولة ويسر ، لم يكن يتخيلها أحد ، لا العرب ولا اليهود أنفسهم .

فقامت دولة « إسرائيل » في قلب المنطقة العربية الإسلامية المقدسة ، وبقيت جاثمة على صدر العرب والمسلمين ، واستطاعت بنفوذ اليهود العالمي أن لا تحتفظ بكيانها فحسب ، بل لم يزدها الزمان إلا قوة واستحكاما ، ثم استطاعت أن تنتصر على أعظم معسكر عربي وأضخمه عدة وعتاداً ، وأن تحطم قوته الجوية .

وأكثر خطراً من ذلك أنها أضعفت قوة إرادة الشعب وروح مقاومته في بضع ساعات في الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ م ، واستولت على القدس ، وعلى الضفة الغربية ، وعلى شبه جزيرة سيناء ، واصبحت قناة السويس ، وكثير من مدن مصر الساحلية

Marfat.com

مهددة معرضة للخطر الاسرائيلي ، وتوغلت في الاراضي السورية، واستولت على عـدد من المواطن الاستراتيجية المهمة، واستطاعت أن تضرب عدة مطارات عربية في جراءة ووقاحة ، وهي الآن تحلم بالاستيلاء على هـــذه المنطقة العربية كلها ، وتتهدد الأماكن المقدسة في قلب الجزيرة ، ويتحدث بعض زعمائها باسترداد مافقده آباؤهم من حصون ومستعمرات يهودية في الجزيرة العربية ، وجلوا عنها في المد الإسلامي الأول ، بل . . يمني .. اليهود أنفسهم بأن يصبحوا يوماً من الأيام السطوة العالمية التي تملي أوامرها ،وتفرض إرادتها على الرؤساء والوزراء ، والقادة والزعماء في العالم كله ، وتحقق الحلم البعيـــد الذي رآه الربيون في التلمود ، وحكماء صهيون في بروتوكلاتهم .

فهل يدوم هـــذا الوضع ؟ وهل تحقق الصهيونية ما بقي من أحلامها ومخططاتها ؟ وهل يترك العرب والمسلمون تحت رحمة هؤلاء الطامحين ؟ وهـــل يفسح لهم المجال ، ويرخى لهم الحبل ، حتى يستولوا على العالم كله ؟ ويحققوا أغراضهم ومايدينون به من فلسفات ، وأفكار ونظريات ؟ وهل يمنحون القيادة للنوع البشري ، وتتاح لهم الفرصة في توجيهه كما أتيحت لرسالات وفلسفـــات ، أو قوىً وطاقات ، أو مدنيات وحضارات في الزمن السابق ؟ .

إننا لا نستطيع أن نجيب عن ذلك جوابا حاسماً ، حتى نقف وقفة قصيرة أمام هذا الكون الفسيح البـــديع ، وما عرفنا عن خالقه ومبـــدعه ، وإسمائه وصفاته وأفعاله وإرادته ، وسننه

Marfat.com

وقوانينه ، وأمام التاريخ البشري وما وصلت الينا من تجاربه وحوادثه .

ولا نستطيع أن نحكم في ذلك بشيء حتى نحكم على السلالة البشرية ، ومدى صلاحيتها ، والطبيعة البشرية ونصيب الخير والشر فيها ، ونحكم على مستقبل الجيل البشري ، ومصير هذا العالم .

فإذا قررنا أن خالق هذا الكون الحكيم العليم ، لم يخلق هذا الكون وهذا الكوكب الذي نسكنه إلا للفساد والدمار ، والفوضى والانحلال ، والظلم والقسوة ، والوحشية والهمجية ، والمؤامرات والدسائس ، ولم يهتم به هذا الاهتمام — الذي يتجلى في جميع مجالاته — من إبداع وإتقان ، وحسن وجمال ، وترتيب وتنسيق ، ويتجلى في إرسال الرسل وإنزال الكتب حيناً بعد حين ، وإلهام المصلحين ونصر الصالحين الصادقين ، وإدالة الخير من الشر ، وتغليب الصلاح على الفساد جيلا بعد جيل - إلا ليسيطر عليه عنصر ينتمي إلى بعض الأنبياء في أقدم العصور ، وتجري في عروقه قطرات من دمهم ، لا ترى بأدق مكبرة بيولوجية ، ولا تحسب بأكبر مهارة رياضية ، ولتهيمن عليه وعلى جميع طاقاته ، وذخائره وثرواته ، سلالة بشرية واحدة ، هي « شعب الله المختار » والأسرة الإلهية المقدسة [1] .

---

١ — وهو ما يحكيه القرآن من زعمهم وقولهم : « نحن أبناء الله وأحباؤه » (سورة المائدة ١٨) وأسفار العهد العتيق والتلمود مملوءة بهذه المزاعم والصفات والنعوت التي لا يحتملها هذا المقال الصغير .

Marfat.com

وإذا قررنا أن هذه السلالة البشرية الكريمة ، هي الخلية البشرية الوحيدة ، التي خصها الله بجميع الطاقات ، وبجميع المواهب ، وقد ارتكزت فيها كل صلاحية ، وكل عبقرية ، وكل إبداع، أما الخلايا البشرية الأخرى ، التي يتكون منها النسل الإنساني الذي يملأ العالم ، فهي حثالة كحثالة الشعير، وبراية كبراية الأقلام، مجردة عن كل جدارة وصلاحية ، وقدرة على الابداع والانتاج ، وعن جميع المواهب والمنح .

فالعنصر اليهودي له وحده الحق في السيادة والحكم على النوع البشري ، أما سائر الناس ، فيجب أن يساقوا كما تساق قطعان البهائم الحقيرة ، وكل من عدا [1] هؤلاء الأبناء المدللين ،والسعداء الموهوبين ، فقطع شطرنج يلعب بها الدهاة اليهود الأكرمون في قدرة ومهارة ، ويضربون بعضها ببعض ، ويغلبون بعضها على بعض ، ويهزمون بعضها أمام بعض ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً .

وإذا قررنا أن الطبيعة البشرية ، هي الطبيعة الشريرة ، التي تفضل التدمير على البناء ، والافساد على الاصلاح ، وهي متشائمة دائماً ، حقود ناقمة على العالم أجمع ، ساخطة على الماضي والحاضر ،

---

١ – يسميهم اليهود الأميين ، يعبر عنها اليهود بكلمة جويم Goyem ، وبكلمة Gentles ويراد بها غير اليهود ، ومعناها عندهم وثنيون ، وكفرة، راجع معجم اكسفورد (الانكليزي) .

Marfat.com

ثائرة موتورة ، تحمل الأحقاد القديمة والجديدة ، وتنظر إلى كل قضية وحادثة بالمنظار الأسود ، ولا ترى إلى الجانب الضعيف في ما صنع الصانعون ، وبنى البناؤون ، وخلف المخلفون ، متذمرة تضيق ذرعاً بكل شيء ، تحتقر غيرها ، وهي في الحقيقة مصابة « بمركب النقص » لا تعرف للسلالة البشرية كرامة ، ولا تعرف غاية أسمى من المادة ، وتحقيق الرغبات الحسيسة ، تقسو عند الانتصار ، وتجبن عند الهزيمة ، وتستخدم جميع الوسائل للوصول إلى الغاية ، ولا تتورع عن أخس الأعمال ، وأفحش الظلم ، وأحط الأخلاق ، وأوقح نفاق .

وإذا قررنا أن العامل البناء الوحيد ، القوي المؤثر ، في بناء المدنيات ، وصنع التاريخ ، وإسعاد البشرية ، وسياسة الشعوب والأمم هو الدهاء الخبيث ، والمهارة الاجرامية ، واللباقة الهادمة المدمرة ، والافساد بين الناس ، والقضاء على الضمائر ، وفك نظام الأسرة وإشاعة الرذيلة والانحلال ، وإحداث الأزمات بعد الأزمات ، وإن الوسيلة الأقوى التى سيطرت على مصائر الامم ، وأعظم حوادث العالم ، وغيرت مجرى التاريخ ، هي المؤامرات الخفية ، وأن أكبر قوة يعتمد عليها ، هي الغدر ، ونكران الجميل ، واللؤم والخسة ، وإن الخلق المحبب إلى الله ، الضامن للغلبة والانتصار ، والعائد على البشرية بالسعادة والهناء ، هو

Marfat.com

الكبرياء والأثرة [1] .

وإذا قررنا أن مصير الإنسانية حالك مظلم ، لا أمـــل في سعادة ولا في أمن وسلام ، ولا في إخاء ووئام، وأنه لايزال ينتقل من حرب إلى حرب ، ومن نكبة إلى نكبة ، ومن شؤم إلى شؤم ، ومن ثورة إلى ثورة ، حتى ينتهي إلى جهنم التي سعرتها الأغراض المتطاحنة ، والأحقاد المتواصلة .

وإذا قررنا أنه ليس هنالك قضية رسالة وهداية ، وقضية عقائد ومباديء ، وقضية ضمائر وقلوب ، وقضية أخلاق وفضائـــل ، وقضية دين مختار ، وشريعة مصطفاة ، ومنهج مفضـــل للحياة ، إنما هي قضية سلالة ونسب ودم وعرق ، وقضية تراث وتراث ، وأحقاد وضغائن ، واسترداد لمجد ضائع ، وأرض مسلوبة أو محتلة ، وإشباع لرغبة الطموح أو غريزة الاستيلاء وطبيعة الجشع .

إذا قررنا ذلـــك كله ، فلا شك أن اليهود هم المرشحون ، المهيئون للسيادة والغلبة ، وأن هذا الوضع سيظل ويدوم ، وأنه لا يعوق عن توسعهم في الحـدود ، والامتلاك والاحتلال ، وعن تحقيق مخططاتهم شيء ، فإنها هي الصورة الحقيقية التي رأيناها فيما عندنا من أسفار العهد القديم ، وفي صحف التلمود وفي بروتوكولات

---

١ — ولذلك يصفهم القرآن « المغضوب عليهم » وجاء هـذا الوصف في سورة الفاتحة التي تتكرر وتجب قراءتها في كل صلاة ، ولا يتذوق هذه الكلمة البليغة ولا يعرف مـدى انطباقها على اليهود إلا من عرف سيرتهم والدور الذي لعبوه في تاريخ الأنسانية .

Marfat.com

حكماء صهيون ، وفي ما وصل إلينا من خطب زعمائهم ، ومحاضر جلساتهم السرية ، وفي ماتحقق من أعمالهم وإجراءاتهم ، منذ استولوا على القدس وعلى المدن الإسلامية العربية .

وهي صورة الحقد والاحتقار ، والنقمة والسخط على البشرية ، وتقديس العنصر اليهودي ، والدم الإسرائيلي إلى حد التأليه ، وتجريد السلالة البشرية الباقية في جميع أدوار التاريخ ، وفي أنحاء العالم عن كل جدارة وصلاحية ، والتصميم على الاستيلاء على العالم كله ، لمصلحة اليهود وحدهم ، والبغضاء المتأصلة في النفوس ، والضراوة بالشر والفساد ، لطبيعة أصيلة ، والعنف والعناد ، كأخلاق قومية ، وعادات مورثة ، وهي الصورة التي تقترن بتاريخها اقتران المزاج بالإنسان، وترافقهم مرافقة الظل. فالمؤامرة قوام تاريخهم ، وعماد حياتهم ، والقطب الذي يدور حوله نشاطهم وذكاؤهم، وهم الرأس المفكر ، والعقل المدبر ، والإصبع المحركة في كل ثورة ، وفي كل مؤامرة ، وفي كل مذهب هدام ، وفي كل فلسفة مدمرة ، وفي كل قلق يسود ، وفي كل أزمة تحدث — اقتصادية كانت أو سياسية ، واجتماعية كانت أو خلقية — ولا أبلغ ولا أدل من كلمة نابغتهم « الدكتورا وسكار ليفي» في وصف شعبه : « نحن اليهود ، لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ، ومحركي الفتن فيه وجلاديه » .

وليست لليهود — ولم تكن في دور من أدوار حياتهم — أي رسالة عالمية ، وطبيعة الرسالة العالمية لا تتفق مع تقديس العنصر

Marfat.com

والدم ، والغلو في تعظيم سلالة واحدة،واعتقاد كل نزاهة وجدارة وصلاحية للتقدم الروحي، والسمو النفسي، والقرب من الله تعالى، في نسل واحد وأمةٍ واحدة ، وعدم الاقتناع بعقيـــدة المساواة البشرية ، ووحـــدة الاصل والجنس في بني آدم ، وتكافئهم في فرص الرقي والتقدم ، والطهارة والنزاهة وبلوغ أعلى درجات الإيمان والإحسان ، والرحمة والرضوان ،فطبيعة تقديس العنصر والدم، وحصر النجابة والنبوغ ،والعبقرية والعظمة،والاختصاص بخالق هـذا الكون ، تعارض كل المعارضة ، العطف على النـاس الإنساني ، والحماسة في نقل أفضل ما عنـدها من رسالة وسعادة إلى باقي البشر وسائربني آدم،وإشراكهم فيما عندها من علم ثابت، وعمل صالح ، وأخلاق كريمة .

بل إن هذه الطبيعة تجنح بطبيعة الحال إلى تضييق دائرةالهداية والدعوة ، وتحديدها في عنصر واحد ، وفي سلالة واحدة ، لذلك كان من الطبيعي أن الديانة اليهودية لم تكن في زمن من الازمان دعـــوة عامة للخلق ، ولم يكلف اليهود – في ضوء من نصوص كتبهم المقدسة – بتبليغ الرسالة إلى الامم جميعا[1] ، بل وردت

---

١ – تقول السيدة الفاضلة المهتـــديه مريم جميلة (Marcus Margaret) اليهودية سابقاً في كتابها « الإسلام إزاء أهـل الكتاب ماضياً وحاضراً » باللغة الإنجليزية : « ليس أن اليهود لا يبلغون دينهم إلى غيرهم عملياً ،بل إنهم لايرحبون بالدخول في دياناتهم ولااعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عـدد كبير ، كان ذلك مرة في اليمن ، في زمن سبق البعثة المحمـدية ببضعة قرون ، ومرة ثانية

Marfat.com

نصوص تمنع عن ذلـــك ، وتحصر نشاطهم الدعوي في نطاقهم العنصري المحدود ، وكان من الطبيعي والمعقول جداً أن يميزوا دائمـــاً بين بني أسرائيل وبين الشعوب والقبائل الاخرى ، وأن يضعـــوا للخير والشر ، والبر والاثم مقاييس مختلفة تختلف باختلاف الـلالات والشعوب ، وأن لا يتحرجوا من أكبر إجرام أو عدوان مع شعب آخر ، وذلك ما أخبر به القرآن عنهم فقال : **« ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل** [1] » ومن الطبيعي والمعقول جداً أن تتعرض جميع الشعوب والسلالات التي يحكمها اليهود لكل اضطهاد وعسف وبخس نصيب وتطفيف كيل، لأنهم لا ينظرون إليها كأسرة إنسانيـــة زميلة ، أو سلالة بشرية شريفة ، وأنما هي قطيع من الغنم ، أو مجموعة من عجماوات أو جمادات ، خلقها الخالق لتكون آلة صماء في يـــد أبنائه المـــدلين . [2]

إذن فالفطرة السليمة التي أودعها الله فى غالب البشر ، ومـا

حين اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التاتاريةالأصل التي عاشت مدة قصيرة في روسيا »
Islam versus ahl al Kitab past and present :22-23

١ — سورة آل عمران ٧٥

٢ — وهي نفس النظرة التي ينظر بها البراهمة والفاتحون من الآريين في الهند إلى سكان هـــذه البلاد القدماء ، وعليه تأسس نظام الطبقات في الديانة البرهمية وفي المجتمع الهنـدي ولا يزال هو النظام المتبع رغم جهود المصلحين الثائرين منهم .

Marfat.com

تحدثت الأديان والشرائع ، والكتب المنزلية عن عدل الله ورحمته وحكمته وإرادته من صنع هـذا الكون ـ الفسيح البديع المنظم المنسق ـ وخلقه للجيل البشري وأستخلافه وتكوينه ، وما أودع في الاشياء من طبائع ، وما وضع لنهضة الامم وانحطاطها ، وقيام الحكومات وسقوطها ، وأزدهار الديانات وذبولها من سنن وقوانين ، وما تحقق عند جميع الاديان ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، من أنـــه ليس رب سلالة ونسل ، ورب أسرة وبيت ، ورب بيت وإقليم ، بل هو إله الجميع ورب العـــالمين ، ورب المشارق والمغارب .

وما ثبت في التاريخ الإنساني من أن الشعوب والامم إنما تحيى بالرسالات التي تحتضنها والغايات التي تدعو اليها ، والفضـــائل التي تكافح في سبيلها ، وما تحمل من إفادة ونافعية ، وغناء للجميع ، وما نبه عليها القرآن الحكيم بقوله : « **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** » [1] .

إن كل ذلك يحتم أن اليهود الذين يتحدون هذه الحقائق ، وهذه الطبائع ، وهذه السنن والقوانين ، والغايات الكريمة التي خلق الله لها هذا الكون ، وأوجد لها هذا الجيل البشري وما يحبه من الخير والصلاح ، ومن العمران والبقاء ، لا يتمتعون بفترة طويلة من السيادة

---

١ ـ سورة الرعد : ١٧ .

Marfat.com

والسيطرة والغلبة والقوة ، ولا يمكنون من تحقيق جميع آمالهم وأحلامهم ، ومشاريعهم ومخططاتهم الهادمة المدمرة ، الانانية السلبية ، ولو أيدتهم الحكومة وكانت من ورائهم القوى الكبرى كلها في العالم ، ولو توفرت عندهم كل الوسائل الجهنمية التي اكتشفها المكتشفون في هذا العصر ، والتي برع فيها اليهود براعة ممتازة [1] ، وسينتصر أهل الحق وحملة الرسالة العالمية الخالدة، التي تعطف على الانسانية كلها ، وتساوي بين الشعوب والامم ، وتنتصر للحق أينما كان ، وتحارب الظلم أينما وجد ، يعيشون للانسانية وبالانسانية ، ولا يريدون علواً في الارض ولا فساداً .

وقد كان للدهاء والمكر والخديعة والذكاء الذي لا يقوم على احترام الانسانية ، ولا يقف عند الحدود العقلية والخلقية ،والذي

---

١ — أخبرت الأحاديث النبوية التي كادت تبلغ حد التواتر بأن اليهود باغون في زمن من الأزمان الذروة في القوة والسيطرة في فلسطين،وينهض فيهم الدجال الأكبر الذي يتزعم هذه القوة ويتصرف في الأشياء ، وأنهم سيجتمعون في مكان واحد ، ثم يتسلط عليهم المسلمون ويضعون فيهم السيف ويبيدهم كل شيء حتى ينم عنهم الحجر ، وبقي علماء السنة أكثر من ثلاثة عشر قرناً يتدارسون هذه الأحاديث في كتاب الفتن والملاحم وأبواب أشراط الساعة في كتب الحديث ، وهي من أبعد الأشياء عن الخيال في عالم الأسباب والواقع ، فاليهود — طوال هذه المدة — أذلاء مشتتون في الآفاق ، حتى بدأت هذه النبوة تتحقق في منتصف هذا القرن المسيحي الحاضر ، فنشأت فكرة وطن اليهود . وقامت إسرائيل ، وحدث ما حدث ، وستحقق أواخر هذه النبوة كما تحققت أوائلها ، وهي من المعجزات النبوية التي تجلت بعضها وتبينت كالصبح ، وسيتجلى الباقي ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

Marfat.com

يتجه دائماً إلى الانانية والسلبية انتصارات بهرت العقول والالباب، وغشت على العيون والابصار وشككت في التـــاريخ البشري ، وكادت تفقد الثقة بقوة الحق وحسن العاقبة للصادقين المتقـــين ، وكانت لهذه القوة التخريبية الماكرة جولات وصولات في التاريخ حتى تحركت الجبال الراسيات ، واضطربت رجال الفلسفـــات وعلماء الديانات ، وقد صور القرآن بإعجاز هذه الساعات الدقيقة العصيبة ، وما ينتاب العقول والقلوب في ذلك الوقت من حيرة واضطراب ، وشك وارتياب ، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن: **« حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »** [1] وقوله : **« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنـــالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً »** [2].

وقد عالج القرآن هذه النفسة الانسانية التي تخضع دائماً للغلبة والقوة مهما كانت عارضة مؤقتة ، ومهما كانت سخيفة هازلة، فقال: **« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد »** [3] وقال : **« ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد »** [4].

---

١ — سورة يوسف : ١١٠ .
٢ — سورة الأحزاب : ١١ .
٣ — سورة آل عمران : ١٩٦ .
٤ — سورة المؤمن : ٤ .

Marfat.com

وعالج كذلك النفسية الضعيفة التي تستسلم دائماً لدهاء دقيق ، ومكر محكم ، أو مؤامرة ناجحة ، فذكر مراراً وتكراراً ، أن مصيره إلى الانهيار والافتضاح ، والخيبة والاخفاق ، وأنه كنسج العنكبوت : « **وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** »[1] .

وقرر أن الخير لا ينتج من الشر ، وما كان أساسه ضعيفاً متداعياً للسقوط ، ولم يكن له أصل ثابت ولا جذور عميقة — في الأرض الكريمة أو الفطرة السليمة — يكون البناء الذي يقوم عليه مستعداً للانهيار في كل لحظة ، فقال : « **أفمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين** »[2] وقال : « **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار**[3] » وقال على لسان نبي الله موسى مخاطباً لجماعة السحرة : قال : « **ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين** »[4] .

وقال يتحدث عن المكر والدهاء في مختلف الأزمنة والأمكنة كقانون عام خالد : « **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلاولن تجدلسنة**

---

١ — سورة العنكبوت : ٤١ .
٢ — سورة البراءة : ١٠٩ .
٣ — سورة ابراهيم : ٣٦ .
٤ — سورة يونس : ٨١ .

Marfat.com

الله تحويلا » [1] وقال : **« والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور »** [2] .

وأعلن حقيقة عالمية لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، والشعوب والأوطان ، ومظاهر الفوز والخسران ، والعادة والحرمان ، فقال غير مبال بما يعتقده البشر من نجاح الحكام والملوك ، والطامحين المغامرين في عصرهم : **« فاصبر ان العاقبة للمتقين** [3] » وقال : **« وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً »** [4] .

بالعكس من ذلك العرب رغم جميع العلل ومواضع الضعف ، والطوارىء التي تحدثنا عنها في محاضراتنا السابقة فى صراحة ليست فوقها صراحة ، ما زالوا ولا يزالون أصحاب دعوة إنسانية عامة ورسالة عالمية آفاقية ، والدين الإسلامي الذي أكرمهم الله بالسبق فيه والدعوة اليه ، حق مشاع وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد والاوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار بني لاوي من اليهود أو البراهمة من الهنود ، لا يتميز فيها شعب عن شعب ، ولا نسل عن نسل ، ليس الاعتماد فيها على العرق والدم ، بل الاعتماد فيها على الحرص

---

١ — سورة فاطر : ٤٣ .
٢ — سورة فاطر : ١٠ .
٣ — سورة هود : ٤٩ .
٤ — سورة الاسراء : ٨١ .

Marfat.com

والشوق ، وحسن التلقي ، وزيادة التقدير ، والتفوق في الجهـــاد والاجتهاد ، وقد روى الامام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ أنه قال : « لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس [1] » .

وقد دان العرب في جميع عصورهم لكـــل من برز في العلوم الدينية وتفوق فيها ، وأقروا لهم بالامامة والزعامة فيها ، وخلعوا عليهم من النعوت والالقاب ما لم يخلعوها على كثير ممن برع في هذه العلوم من العرب ، فلقبوا الامام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري ، صاحب الجامع الصحيح (م ٣٥٦) بأمير المؤمنين في الحديث ، وقالوا عن كتابه إنـــه أصح كتاب بعد كتاب الله ، ولقبوا الامام أبا المعـالي عبد الملك الجويني النيسابوري (م ٤٧٨) بامام الحرمين ، ولقبوا الامام أبا حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (م ٥٠٥) بحجـة الاسلام ، وقد كان الموالي وأبناء العجم هم زعماء العلم ومراجع المسلمين في جميع عواصم المملكة الاسلامية الواسعـــة في آخر القرن الاول الهجري . قد انتهت اليهم رئاسة العلم والفتيا ، والفقه والحديث ، وهي قصة معروفة في جميع كتب الطبقات والسير والتراجم وتاريخ الحضارة الاسلامية .

واطرد ذلك في العصور الاسلامية الذهبية التي ساد فيها العرب حتى قال نابغة العرب العلامة عبـــد الرحمن بن خلدون المغربي

---

١ — مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٩٦ .

Marfat.com

(م ٨٠٨ هجري) : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي . . . . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ، والفارسي من بعده ، والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم ، وكذا حملة الحديث ، وعلماء أصول الفقه ، وحملة علم الكلام ، وأكثر المفسرين »[1] .

والعرب بفطرتهم التي فطرهم الله عليها من أقرب الامم والشعوب إلى قبول مبدأ المساواة الانسانية واحترام النوع البشري ، وأنشطها في تطبيق هذا المبدأ والعمل به ، قد حملوه معهم في فتوحهم الواسعة ، وفي زحفهم المبارك ، الذي فتح للعالم آفاقاً جديدة في العلم والمدنية ، والفضيلة والتقوى ، حتى أحبتهم الشعوب المفتوحة - وقد عرفت في التجربة وباهة العقل ببغض الفاتحين - وغلا بعض الغلاة الوثنيين من مشركي السند والمتان في شبه القارة الهندية في القرن الاول الاسلامي ، فصنعت لمحمد بن القاسم الثقفي ، الفاتح العربي تماثيل ، أضافتها إلى تماثيلها القديمة حباً وإجلالاً .

وأسلم أهل سمرقند البوذيون على يكرة أبيهم ، لما رأوا من

---

١ — مقدمة ابن خلدون ، المطبعة اليهية المصرية ص ٤٠٩ .

Marfat.com

معاملة الخليفة عمر بن عبد العزيز وعدل المسلمين[1] – بخلاف البلاد التي فتحها غير العرب – قاطبة في الاسلام، واعتنقت الحضارة الاسلامية، وتكلمت باللغة العربية، وفضلت الفاتحين الاجانب وما حملوه معهم من أخلاق وعادات، وشرائع وقوانين، ولغات ولهجات، على ما توارثتها من أحقاب طويلة، وأجيال متواصلة، وتكون منها هذا العالم العربي الذي نتحدث عنه، ولا تزال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي قالها لاحد قادته الكبار، يتردد صداها في الآذان والقلوب، وفي صفحات التاريخ: « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وقد كانوا في جاهليتهم وفي إسلامهم من أبعد الامم بحكم الفطرة والنشأة والمثل العليا التي كانوا يدينون بها طبيعة المؤامرات والتكتم والسرية، والدسيسة والنفاق، فكانوا أعداءاً جهاراً وعلانية، وكانوا أصدقاء جهاراً وعلانية، وكانوا إذا حاربوا حاربوا في الميدان، وإذا صالحوا صالحوا عن إعلان، دل على ذلك شعرهم وأدبهم، ووصاياهم وحكمهم، وأمثالهم وأيامهم في الجاهلية والاسلام، ولم يكن النفاق، من طبيعتهم الاصيلة، ولذلك يكاد المفسرون يتفقون على أنه لا نفاق في مكة، لانها بيئة عربية خالصة، لا تشوبها شوائب اليهودية والعناصر الدخيلة، وعلى أن جميع الآيات التي جاء فيها ذكر النفاق والمنافقين

---

١ – راجع فتوح البلدان للبلاذري .

مدنية [1] ، وقد استدل لذلك بعض المفسرين والاصوليين بقوله تعالى في سورة البراءة : « **ومن حولكم من الاعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق** »[2] .

فلا خطر على العالم وعلى الرقعة التي يحكمهـــا العرب ، وعلى الشعوب والامم التي يقودونها ، وعلى المدنيـات والمؤسسات التي يوجهونها ، وعلى السياسة التي يلعبون فيها الدور الحـــاسم ، من مؤامرة سرية ، ومن دسائس خفية ، ومن النفاق في الاخلاق ، ومن الافساد بين الطوائف والطبقـــات ، ومن خلق المشاكل والازمات ، لمصلحة قومية وأنانية فردية أو جماعية ، إنما هي قيادة واضحة حاسمة ، وسياسة ظاهرها وباطنها سواء ، وحكم يعدل مع القريب والبعيد ، والشرقي والغربي ، والعجمي والعربي .

أما هذه القومية المتطرفة ، والعصبية الجاهلية ، التي ابتليت بها بعض الجماعات العربية ، وتزعمتها بعض القيادات في العهـد الاخير لاسباب ليس هذا محل شرحها ، فهي طارئة دخيلة ، لا تنسجم مع الطبيعة العربية الاسلامية الاصيلة ، وهي تثور عليها في أول فرصة وتعود إلى أصالتها القديمة ، وإلى إيمانها الذي امتزج بلحمها ودمها ، وتغلغل في أحشائها ، بقوله تعالى : «**ان أكرمكم عند الله أتقاكم**»[3]

---

١ — سبق لكاتب هذه السطور ، مقال في هذا الموضوع نشرته صحيفة « الفتح » الغراء لصاحبها الاستاذ محب الدين الخطيب سنة ٣٢ أو ٣٣ م .

٢ — سورة البراءة : ١٠١ .

٣ — سورة الحجرات : ١٣ .

Marfat.com

وبقول الرسول الاعظم ﷺ « ... **الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى** »[1] .

وإذا كان الإسلام رسالة الله الاخيرة الخالدة التي تكفل الله ببقائها وخلودها ، وإذا كان القرآن هو الكتاب السماوي الاخير الخالد الذي تكفل الله ببقائه وحفظه ، ولا بقاء للاسلام ولا للمسلمين (كأمة ذات عقيدة وشخصية ، وقانون وشريعة ، ودعوة ورسالة) بغيره ، وكل ذلك مكفول مضمون ، وقد قال الله تعالى : « **إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »[2] كان بقاء العرب مضموناً مكفولاً كذلك ، فلا بقاء للقرآن بغير اللغة العربية ، ولا بقاء اللغة العربية بغير أهلها ، فان كل ذلك لا يقوم في الفضاء ، وليس من المعقول ولا من اللائق بحكمة الله تعالى أن يبقى هذا الكتاب الخالد العالمي لغزاً لا يفهمه أحد ، أو مختوماً لا يستطيع أحد أن يفض هذا الخاتم ويستفيد به ، أو يبقى أثراً تاريخياً في المتاحف والمستودعات ، قد اندرست لغته كما اندرست الهيروغليفية أو الفينيقية أو الحميرية ، وتعالى الله عن أن يسمي ذلك حفظاً وصيانة ، وفضلا وكرامة ، ويمن بها على هذه الامة وعلى الانسانية التي لا تزال تستمد منه القوة والحيوية ، وتسير في ضوئه في كل عصر وجيل .

وليس من الحكمة أن يعيش العرب مستعبدين ، أذلاء

---

١ — رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ — سورة الحجر : ٩ .

Marfat.com

صاغرين ، ويفقـــدون كل حول وطول ، وكل وسيلة لتوجيه البشرية وقيادة الانسانية ، وتصبح هذه المنطقة التي أشرقت منها شمس الاسلام ، وانطلقت منها موجة المـد الاسلامي في الآفاق ، وارتبط بها تاريخ الاسلام والمسلمين ، هـذا الارتباط الوثيق الذي لا مثيل له في تاريخ الديانات ، وفيها هذا البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، ومراح الارواح ، ومهوى الافئـــدة ، ومدينة الرسول التي هي مهبط الوحي ، وظئر الاسلام ، ومصنع التاريخ ، فلا بقاء للاسلام والمسلمين — ولو قامت لهم ألف دولة، وارتفع لهم ألف علم ، ولاشرف لهم ولا كرامة ، ولا هدوء ولا راحة ، إذا ذل العرب،وفقـدوا هذه المنطقة التي فيها مقدساتهم، وهي معقل الاسلام ، ومصدره ومأرزه ، ولذلك جاء في بعض كلمات مأثورة : « إذا ذل العرب ذل الاسلام » .

ولذلك كانت هـذه الاوضاع غير الطبيعية ، غير صالحة للبقاء والاستمرار ، تعارضها الفطرة البشرية والعقل المستقيم ، والمنطق السليم ، وطبائع الاشياء ، والحقائق الراهنة ، والظروف المحيطة ، والنصوص الدينية ، والوعود الإلهية ، والتاريخ والجغرافيـة والسياسة الحكيمة التي لم تفقد رشدها ولم تجن جنونها [1] . وإذا

---

١ — أما السياسة الخرقاء العمياء التي تتبعها أمريكاوروسيا إزاء العرب ، فهي سياسة تقليـدية خالية من كل ذكاء وابتكار ، وجراءة خلقية أو حياء وإنسانية ، خاضعة للنفوذ اليهودي ، ومؤسسة على « السكرتارية » الغبية ، والأوراق والملفات القديمة ، غير مبنية على الحقائق ، ومثل هـذه السياسة والاتجاهات ، لاتنشأ إلا عندما يصيب الحكومات الهرم والشيخوخة ، ويـدق أبو ابها الزوال القريب .

Marfat.com

بقيت مدة قصيرة ، فهي مدة طويلة بالنسبة إلى حكم الوضع وطبيعة الاشياء وبداهة العقل .

وبعـــد فإن إنتصار الصهيونية في هذه الفترة التي يمر بها العالم العربي والاسلامي الآن ، وتحقيق بعض أهـــدافها ومخططاتها في الاستيلاء على هـــذه المنطقة العربية الاسلامية ، لم يكن انتصار رسالة على رسالة ، ولا انتصار أمة على أمة ، ولا انتصار دين على دين ، ولا انتصار حق على باطل ، فإن اليهود ليست لهم أي رسالة في هـــذا العصر ، ولم تكن هنالك معركة بين اليهود والامة الاسلامية ، أو الشعوب العربية ، فإنه لم يسمح لهـــذه الامة ولا لهذه الشعوب أن تخوض هذه المعركة ، وتبرز جـــدارتها وكوامنها ، ولم يسمح للاسلام بالخوض في حرب حزيران سنة ١٩٦٧ م ، بل عزل عن الميـــدان ، وأقصي عن ساحة الحرب بتصميم وإرادة . إن جل ما هنالك أنه انتصار أقـــدر قيادة على أخيب قيادة ، وقد كان من سعادة اليهود أن تهيأت لهم قيادة بعد آلاف من السنين ، غسلت عنهم العار الذي رافقهم عبر القرون ، وفي رحلتهم الطويلة ، وصنعت لهم تاريخا جديداً ، وكان من نكبة المسلمين والعرب أن ابتلوا ـ لاسباب شرحناها في الفصول الاولى من هذا الكتاب ـ بقيادة جنت عليهم وعلى تاريخهم الجناية الكبيرة، وورطتهم في مأزق لا متقدم فيه ولا متأخر .

Marfat.com

ولـــكن قضية القيادة وأخطائها وجناياتها مهما طالت ، فهي قضية سهلة يمكن أن تعالج ، أما قضية الرسالات ، وقضيةجدارة الامم وصلاحيتها للبقاء ، واستحقاقها للنصر،فقضية عسيرة معقدة، فلا يسهل إبدال رسالة برسالة ، ولا يسهل نفخ روح في جثة هامدة، والامة العربية الاسلامية لا تحتاج إلى رسالة جديـــدة ، ولا إلى دين جديـــد ، ولا إلى بعث وإحياء ، فإنها هي الامة الزاخرة بالحيوية والقوة ، المستعدة للانتفاض في كل وقت ، أما القيادات فهي كأمواج نهر دافق جار ، تأتي وتـذهب ، وتغدو وتروح ، وترفع رأسها وتثبت وجودها ، وقـد تغرق بعض السفن ، وتحطم بعض القوارب ، ولـــكنها تغيب في جوف النهر الخالد الكبير ، وتتوارى في هذا الخضم المائج ، والنهر ذلك النهر ، لا يفقد اسمه ولا وجوده ولا شخصيته .

وقد شهد التاريخ الاسلامي أمواجا من هـذا النوع ، ارتفعت حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم نامت في مهد هذا البحر اللجي وفي أعماقه ، فقامت حكومات وطويت حكومات ، وجاءت قيادات وذهبت قيادات والاسلام هم الاسلام ، والامة هي الامـــة ، والرسالة هي الرسالة، والكتاب هوالكتاب، والايمان هو الايمان .

وهكذا النكباتوالكوارث ، وحوادثالتراجعوالانتكاس، تجارب طبيعية تمر بها الامم الحية النامية ، الدافقة بالحياة ، ومحن تمحص بها وتصهر لتبلغ النضج والاكتمال ، وتتعود اليسر والعسر، والسراء والضراء ، ولا تبطر عند الفتح ، ولا تيأس عند الهزيمة :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم [1] » كالجسم الحي النامي ، الذي لا يعتمد على حيويته وقوة مقاومته ، حتى يمر بمراحل مختلفة من الصحة والمرض، والقوة والضعف، واختلاف الاجواء والمناخات ، وتنوع الفصول والطقوس ، فيحتمل كل ذلك ويتمرن عليه ، والعودة إلى الصحة مضمونة للجسم السليم القوي ، والانتصار مكفول لصاحب الرسالة الفاضلة ، المفيدة للبشرية ، والصفات الكريمة العائدة بالخير على الجميع ، وصدق الله العظيم :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس،وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكفرين » [2].

---

١ — سورة الحديد : ٢٣

٢ — سورة آل عمران : ١٣٧ — ١٤١

Marfat.com

المسلمون و فلسطين

Marfat.com